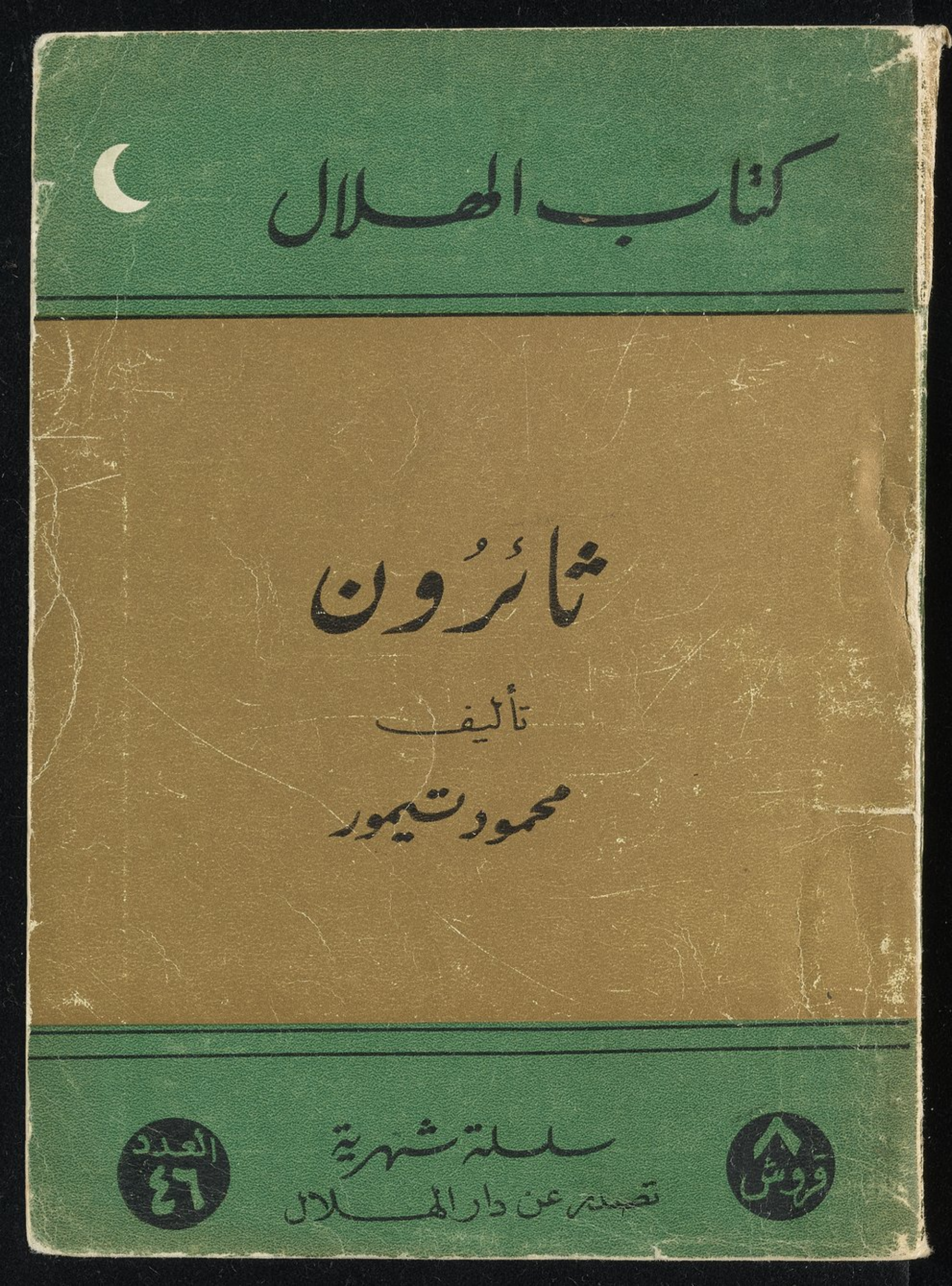

كتاب الهلال
ثائرون
تأليف
محمود تيمور
سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال
العدد ٤٦
٨ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤٦ ـ جمادى الاولى ١٣٧٤ ـ يناير ١٩٥٥

No. 46 — January 1955

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

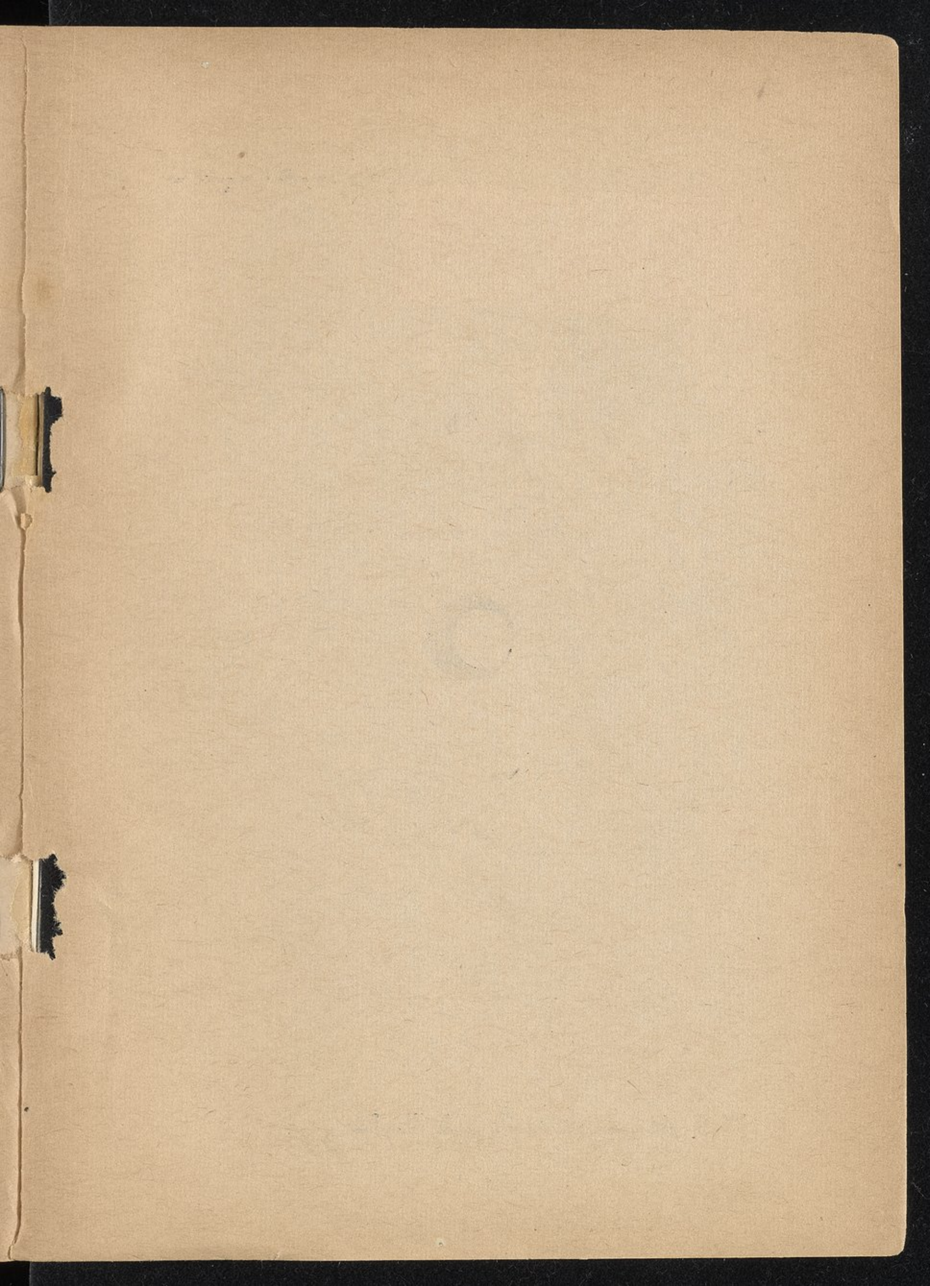
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



ثائرون

تأليف

محمود تيمور

Thāirūn

مقدمة المؤلف

دارت بين طائفة من الكتاب مساجلات حول الأدب :
هل هو تعبير عن النفس فى محيطها الخاص ، أو هو تعبير عن الحياة فى محيطها العام ؟

وعندى أن القول بأن الأدب تعبير عن الحياة قول كله حق وصدق ، وما أولاه بأن يرتفع عن مدار الجدل والنزاع

ما قيمة الادب اذا لم يكن تعبيرا فنيا بالقول أو بالكتابة عن الحياة فى أوسع معانيها ؟

اذا قال قائل بأن ثمة أدباء يعبرون عن أنفسهم كان فى قوله غلو واسراف ... فالاديب الفنان يستلهم من الحياة فنه ، ثم يعبر عن الهامه بصيغته الخاصة وطابعه المتميز . وكلما كان الأديب أعمق تغلغلا فى صميم الحياة ، وأصدق تعبيرا عن الالهام ، كان عمله أقوم وأثمن وأخلد

والأدب فى ظاهره غاية ، وفى جوهره وسيلة ...

هو غاية،لان الأديب الفنانفى أغلب حالاته يعبر عن حياة تعتلج فى نفسه ، لا يملك الا أن يعبر عنها فى صراحة وخلوص

فالأدب تصوير لانتفاضة نفس الأديب أثناء استجابته للحياة من حوله ، وأنت فقد يسرك شيء فتضحك ، ويحزنك شيء فتبكي ، وما تعبير الأديب الا لون أصيل من ضحكة الطروب أو بكاء الحزين !

من هذه الوجهة يمكن أن نعد الأدب غاية ...

ولكن الأديب يسمو أبدا بمشاعره الى خير الانسانية حين يعمر قلبه الحب الشامل ، وتمتلىء نفسه بفتنة الجمال المطلق ، فهو اذن يرمى – واعيا أو غير واع – الى أهداف معينة ... وطوعا لهذا يكون الأدب وسيلة لاصابة تلك الأهداف على وجه عام ، وهى التسامى بالحياة وبالانسانية الى آفاق أعم خيرا وأكرم مثلا ...

على أنه قد يكون الأدب – من زاوية خاصة – وسيلة ظاهرة لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، أو لعلاج مشكلة من مشكلاته ، وذلك فى بلد مخصوص ، فى زمن محدود ... وهنا يتوقف النجاح فى العمل الفنى على مدى استجابة الأديب لهذه المشكلة أو تلك القضية ، ومبلغ ما له من صدق التأثر ، وقوة الأداء ... ومتى استطاع الأديب أن يحيا فى صميم القضية الاجتماعية أو المشكلة القومية تيسر عليه أن يعبر عنها تعبيرا فنيا أصيلا يدامج أعراق البشرية ويمازج حقائق الحياة

حتم اذن أن يتوافر بين الأديب وموضوعه تلاؤم وائتلاف فى جو من الحرية الطليقة ، لا فرض فيه على الأديب ولا الزام ...

فكون الادب غاية ، وكون الادب وسيلة ، قولان يترادفان مادام الأديب موفور الموهبة ، عميق الحس ، صادق الالهام

أقدم هذه الخطرات بين يدى مجموعة من القصص ، كانت صدى لما تجاوب فى نفسى من شئون الحياة التى تضطرب من حولى ، وأضطرب أنا فى عبابها بقدر قليل أو كثير ... وكل قصة من هذه المجموعة تمثل جانبا من هذه الحياة ، وتعبر عما يجيش به قلب مؤلفها ، مستجيبا لما فيها من مشاهد وأحداث

ولا يتسع المجال هنا للحديث فى كل قصة من قصص هذه المجموعة ، ولكن يطيب لى أن أجمل القول فى أولى تلك القصص ، فهى تصور عصرا من أخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصر « ما قبل الثورة » ...

أولئك فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى عهد مظلم يتسم بالفساد والانحلال ، ولكن جوانحهم تنطوى على رغبة مستعرة فى انقاذ الوطن مما يعانيه ، وفى نفوسهم تضطرم روح الثورة ... الاحداث الشداد تنزل بهم ضرباتها ، وتيار الفساد يجرفهم فى أمواجه ، فيوشكون أن يفقدوا نزعة المغالبة والكفاح ، ولكنهم يطاولون الزمن ، ويضطربون فى الغمار ، تارة نراهم مهزومين متخاذلين ، وطورا يتناهضون ويتواثبون ، وهم يعدون العدة لخوض المعركة ، واصابة الاهداف . وأنهم لكذلك فى حيرة واضطراب تترجح بهم الأيام ، اذا هم يأنسون ضوءا فى سماء حياتهم ،

رائع القوة والمضاء ، وان هذا الضوء الوهاج ليعيد اليهم الثقة بأنفسهم ، فينبعثون للعمل ، مسترشدين بهديه ، لاقامة صرح الوطن الجديد

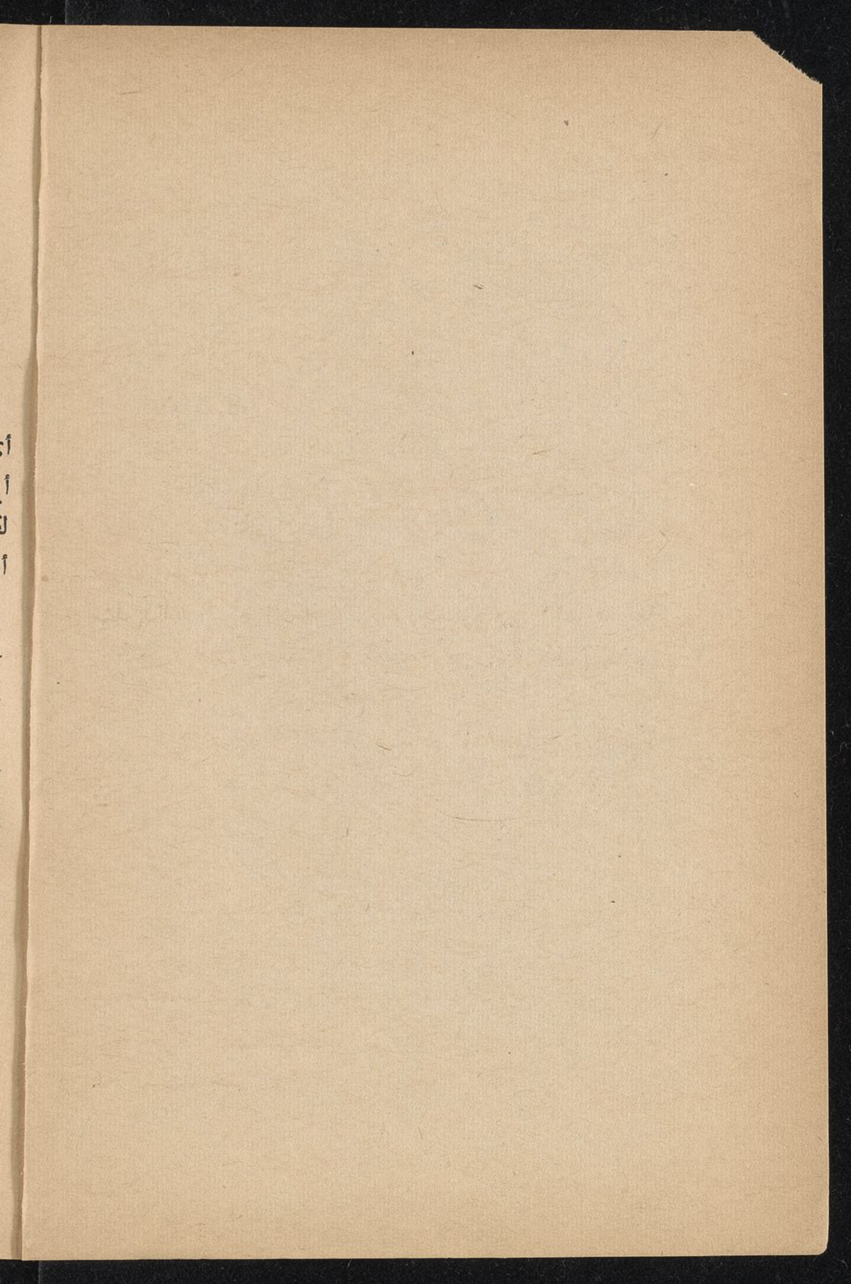
وفى بقية القصص صور مختلفة من حياتنا المصرية تنطوى على أهداف شتى ، وأرجو أن أكون بتقديمها قد أسهمت فيما هو مفروض على الاديب المعاصر ، من مسايرة وعى الأمة ، والتعبير عن أهدافها الرفيعة وآمالها الجسام

محمود تيمور



ثائرون

فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى عهد فساد وانحلال ، وبين جنوبهم روح الثـــورة ، ولكنهم يظلون فى حيرتهم ، حتى يتلقوا ذلك الضـــوء الوهاج ، يهدى لاقامة صرح الوطن الجديد



— ١ —

القاهرة ، أول فبراير سنة ١٩٥٢

قبل أيام قصار شب حريق « القاهرة » ، ولسنا ندرى أى يد آثمة دبرت هذا الحريق المشئوم ؟ ما أكثر الشائعات ! أياما كان الامر فهذا حدث الأحداث فى الحقبة الراهنة . لقد نبه الاذهان الى أن حالة القلق التى تطبق علينا يجب أن تكون لها نهاية . هذا نذير ، وانه لنذير جد خطير !

منذ ذلك اليوم النكد ، ونحن نعانى من الهم ما نعانى : جو خانق يأخذ بالانفاس ، ورهبة جياشة تفعم الصدور ، وحيرة دائبة تقسو على الاعصاب

الى أين المساق ؟ لقد استبدلت وزارة بوزارة ، وربما كانت الوزارة الجديدة أرشد من تلك التى تولت ، ولكن ماذا فى مستطاع الوزراء الجدد أن يفعلوا ؟ أهذا كل مايجب أن يكون بعد حادث الحريق ؟!

كلما فكرت فيما نحن فيه ، تلبدت فى رأسى من التشاؤم غيوم ...

لقد مضت شهور ، والبلد كله كأنه مرجل يغلى فوق نار ثمة حرب عصابات عن كثب من القناة ، موجات لا تكاد تشتد حتى نراها ترتد ، لقد استبد بالناس الحنق ،

والتهبت مشاعرهم ثورة على الاجنبى المحتل ، فلم يكن فى مقدورهم الا أن يقضوا مضاجعه ، حتى لا يجد مفيضا من الرحيل . وأنى له البقاء فى بلد يمقته فيه أهله ، ويبيتون له أسباب الاقلاق والترويع . ولكن أليست تلك الحرب الخفية الى حين ؟ ألا يسرع اليها الكلال والفتور ؟

شدما تضـــــاربت الاقاويل فى شأن أولئك الفدائيين الاحرار ... كيف تتألب منهم الجماعات ؟ ومن أين تواتيهم الذخيرة والعتاد ؟ وأى امرة ينضوون تحتها فى هذا الجهاد ؟ تلك ألغاز لا تنكشف ضمائرها فى وضح النهار !

قبل ذلك الحريق كانت كليات « الجامعة » مهوشة يمور فيها الاضطراب ، ولكنها مفتحة الأبواب تواصل الدرس على أية حال ... كنـــا نحن الطلاب حشـــودا فى المدرجات أو الساحات ، نخطب أو نناقش ، وربما أفضى بنا خلاف الرأى الى مشاتمة وعراك ...

أما اليوم ، فالكليات مغلقة ، والطلاب أشتات ، والحيـــاة جهامة وعبوس ، والقيود الثقال مفروضة على الســـــهر والتجوال والاجتماع

يا لهذا الضيق الذى يحاصرنى من حيثما أتلفت ، يزيد من حدته على أن ينتابنى سعال ، سعال خشن تنقض منه الضلوع ، وأمى بجانبى تلزمنى أن أنفذ ما نصح به الطبيب ، وتنهانى أن أريم الفراش ، وتؤنبنى كلما لمحت منى بوادر الانطلاق

ألزم فراشى ؟! الطبيب محق ، وأمى على صواب ، ولكن

كيف لى أن أحتمل قيدا جديدا فى هذه الأيام السود ؟ أليس حسبى ما يكبلنى من قيود ؟ ماذا يراد بى ؟ أأكون خرقة مهلهلة يوسدونها الفراش ، ويتركونها تبلى على مهل ؟!

— ٢ —

الثانى من فبراير سنة ١٩٥٢

نفثت دما صباح اليوم ، فأخفيت النفاثة فى منديلى ، ولم أره أمى ، ماذا فى الأمر ؟ أتكون حالتى الصحية لا تبعث على الطمأنينة ؟ ولكن ألم أنفث دما قبل هذه المرة ؟

أذكر انى منذ شـــهر ، كنت اعتلى احد المقاعد ، بين الطلبة ، مسترسلا فى الخطابة ، فامتلكتنى سعلة ، وأخرجت المنديل أتفل فيه ، فاذا هو يتلقى نفاثة حمراء ، وراعنى ذلك أول وهلة ، ولكنى تجلدت ، وتابعت القول ، بيد أن الطلاب ثاروا بى ، ولم يرقهم قولى ، فعجلت من فورى الى الدار ، متخاذل الأوصال ، وانتحيت بأمى ناحية أريهـــا المنديل ، وأنا أقول لها ضائق النفس :

ـ سأموت ... سأموت ... لا خير فى هذه الحياة ... سأرحل عنها غير آسف !

فأخذت أمى تلاطفنى ، ثم احتضنتنى ، وقبلتنى ، وهى تقول :

ـ ما هذا القول يا « يسرى » ؟ أنت تؤثر الموت على الحياة ؟ لماذا ؟ لأن انحرافا يسيرا ألم بصحتك ، فى مقدورك الخلاص منه اذا أذعنت لمـا يقضى به الطبيب ؟ قليل من

الراحة كفيل بأن يرد عليك العافية موفورة كما كنت من قبل

فصحت بأمى :

— انى أنشد الموت ، لا أجد من حولى شيئا يبعث على الرضا ... انى أختنق ... انى هالك لا محالة !

— كيف ذلك ؟ لقد صدقنى الطبيب فى وصف حالك ، أكد لى ألا خوف عليك متى عنيت بنفسك ...

— أخبرينى يا أماه ، ماذا فى الدنيا جدير أن أحيا من أجله ؟

— كل شىء فى دنياك جدير بالحياة .. الحياة جميلة يابنى حسبك أن تحيا من أجلى ، لاحتضنك ، لأقبلك ، لأراك تنمو أمامى وتزدهر ، لأشهدك فى قابل أيامك رجلا عظيما ... كأبيك !

— أبى ؟! ... لقد كان عظيما حقا ، وأين أنا منه ؟ لقد كان صلبا مكافحا ، وما حظى من الصلابة والكفاح ؟

— لتكونن مثله ان شئت ... اعلم أنى أحبك ، لأنك بضعة منه ، لأنك متمم له ، لأنك مثاله .. لأنك هو عينه

وتلقت وجهى بين يديها ، وهى تحدق الى بعين متهومة ، وتقول :

— أنت هو ... هو « مجاهد السمرى » أبوك ... لا أعده قد مات وأنت على قيد الحياة .. لا تغيب عنى شمس أبيك ما دمت أنت يا « يسرى » مشرقا أمامى !

وتعانقنا معا فى صمت جياش ...

— ٣ —

الثالث من فبراير سنة ١٩٥٢

أبى ... أبى ... أأكون على غراره ؟ أفى طوقى أن أسير سيرته ، واحوز بعض امجاده ؟ انا الشاب الواهن ، ذو الأعصاب المختلة ، والتفكير المضطرب . أنا الذى أحس الضيق بكل شىء : الضيق بالدرس ، فقد أخفقت فى امتحان العام الماضى ، وهأنذا أعيد السنة الأولى بالكلية ، والضيق بالمطالعة ، فما قرأت من الكتب الا النزر اليسير ، والضيق بمواصلة العمل فى جد ومثابرة ، فما أذكر أنى قمت بشىء أفخر به ...

من أين لى أن اكون مثل ابى « مجاهد السمرى » ، ذلك الذى عمل مع « مصطفى كامل » ، ونفى مع «محمد فريد» وعاد مكافحا مع « سعد زغلول » ، فعانى مذلة التشريد ، وذاق مرارة الاعتقال ، وأطبقت عليه ظلمة السجن ، ونالت منه طعنات الحراب الانجليزية فى الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وظلت هذه الطعنات وسمة بل وساما على جسده بقية أيامه على ظهر الأرض

ما أتعسنى اذ لم تتح لى الأقدار أن أحيا معه الا سنوات لا تزيد على الثمانى ، وقد خلفنا بعد ذلك وهو فى أوج رجولته ، وأنا فى سن غريرة ، والبلد أحوج ما يكون لأمثاله المجاهدين

لست أنساه ... مربوع القامة ، مستدير الوجه ، تتألق فى عينيه نظرات نفاذة

كنت أخشاه ... أخشى صوته الجهورى العريض ، ولكنى ما زلت أذكر حنانه لى،وهو يمسح على رأسى ويقبلنى

جالت بخاطرى هذه الافكار والذكريات ، فنهضت من فورى الى تركة أبى من أضاميم الصحف والمجلات والصور تلك التى كان يحرص عليها أشد الحرص ، ويعنى بها كل العناية ، ويرى فيها سجلا للوثبة الوطنية منـــذ فجرها الأول ... انها تحوى مواقفه الرائعة ، وخطبه الحافلة ، الى جانب المواقف والخطب المأثورة عن الزعماء والأبطال

جلست الى تلك الذخيرة أتعرف وأتصفح وأقرأ ، ومن حولى تتكاثر الذكريات وتتداعى ، حتى تألقت منها صورة كاملة لبطولة الجهاد وصدق الكفاح ...

وفيما أنا على هذه الحال ، اذ سمعت خفق أقدام ، ورفعت رأسى ، فاذا صديقى « نزهى » يقدم على ، ويبتسم لى ، فقمت له أحييه ، وأصافحه ، فابتدرنى يقول :

ـ أنت بين هذه التلال دائما لا تمل ...

وانكب يشاركنى فى التصفح والمطالعة والتعقيب ، ثم اثنينا نترشف القهوة ، وطفق يقص على ما تساقط اليه من أنباء وأحاديث

السلطات الحكومية جادة كل الجد فى القبض على المشاغبين الذين تحسب أنهم أسهموا فى الاحراق وما تبعه من سلب وانتهاب ، انها تجمع منهم العشرات فى اثر العشرات ، وتمهد طريقهم الى القضاء ... أحقا ان أولئك هم أصحاب الحريق الأصلاء ، أليسوا هم شراذم من غمار الجمهور ؟ قل انهم

صعاليك ، أو قل ان فيهم صعاليك ، ما كادت تلوح لهم فرصة الاختطاف والعبث والفوضى حتى أوغلوا ، ولكنهم على أية حال أغرار ، وهم صرعى ما يكابدون من سوء العيش ...

أين الرءوس الكبيرة التى دبرت ذلك الشغب الخطير ؟ ان تلك الرءوس هى التى ترسم الخطط ، وتتيح الفرص ، وتتخذ من الاوشاب والمستضعفين مخالب القطط ، ثم تستكن الرءوس بمنجاة من العيون ، وتدع لأولئك الأغمار والهمل أن يسقطوا فى الشباك والاشراك كما تسقط الفراشات على ضوء اللهيب !

وانبرى « نزهى » يتحدث ، والسخط بالغ منه كل مبلغ ، وكنت أصغى اليه ، لا أقطع الحديث عليه ، وكان صديقى هذا طلق اللسان ، قوى المنطق ، يكبرنى بأعوام ثلاثة ، وهو يعمل فى الصحافة ، تارة يكتب بعض النبذ ، وطورا يقدم بعض الرسوم الساخرة ، ولم يكن موفقا فى عمله الصحفى ، ولذلك كان مقترا عليه فى الرزق ، وكثيرا ما أحس الضنك والعسر ، بيد أنه لا يبالى ذلك كبير مبالاة ، فليس هو بذى أسرة يعولها ، وليس هو بذى طموح الى كسب موفور

وقال لى « نزهى » فيما قال :

ــ أتطيب لك هذه الحياة ؟ أرأيت اليهم كيف يزجوننا فى البيوت عند غيوب الشمس كالأفراخ ؟ كيف أحبس نفسى سواد الليل كله فى حجرتى المتضايقة ، وقد ألفت أن أسهر

حيث أشاء ؟ أريد أن أتنفس فى جو الحرية والطلاقة ، أريد ان اجتلى الطبيعة فى سجوة الليل ... !

– وماذا أنت صانع يا « نزهى » ؟

– لقد دبر لنا « عبد الحكيم » حيلة طريفة ، لعلها تروقك فنقضى الليل كما نريد فى غير محبس

– أين ؟

– فى قهوة « السويفى » على مدخل قرية « الهماميل » ... انها أول قرية لا يتناولها قانون حظر السهر خارج « القاهرة »

وكنت أعلم أن هذه القرية هى مسقط رأس رفيقنا « عبد الحكيم » ، وقد اصطحبنا اليها فى العام الماضى مرات فذهبنا اليها راجلين ، من طريق « الزمالك » ، وقضينا هنالك فى قهوة « السويفى » بعض الأصائل والأمسيات ، وكانت هذه القهوة غاية فى التواضع ، مشرفة على النيل ، فاذا أخذنا مجالسنا فيها شرعنا نكرع أقداحا من شراب الحلبة يجيد صنعها « الحاج محمد السويفى » صاحب القهوة نفسه ، وكنا نمضى الوقت فى نقاش سياسى موصول الحلقات أو نصغى الى الحديث الشائق الذى كان يمتعنا به « عبد الحكيم » فى شأن مغامراته ومناوشاته أثناء المواقف القومية على رأس عصبة من أمثاله الوطنيين الأحامس ، والفدائيين الاحرار . فاذا انخرط فى حديثه ، وعلا صوته ، واشتدت حماسته تجمع من حولنا صاحب القهوة « السويفى » ، وغلامه « فلافل » ، ومن يتفق حضورهم من أهل القرية

يستمعون الينا فى كثير من الشغف والاهتياج

وما كاد رفيقى « نزهى » يعرض على فكرة السهر فى تلك القهوة ، حتى تنفست الصعداء ، وقلت :

ـ فكرة طيبة يا « نزهى » ... ولكن متى نذهب اليها ومتى نعود ؟

ـ نخرج من منطقة « القاهرة » قبيل السابعة ، ونعود اليها بعيد الفجر

ولقينا « عبد الحكيم » عند جسر « الزمالك » ، قبل موعد الحظر ، فسايرناه على ضفة النيل ، نترنم ببعض الأهازيج

وكان « عبد الحكيم » عظيم الجرم ، ضخم الرأس ، حديد النظرات . وبينما هو بجانبى يتغنى ، اذ أمسك عن الغناء والتفت الى ، مربتا كتفى ، يقول :

ـ ما هذا يا « سمرى » ؟ كيف تخرج لقضاء الليل فى الطريق وأنت مريض ؟ كيف طوعت لك نفسك أن تترك الفراش ؟

فأجبته أتحدى :

ـ صحتى حسنة ، أريد أن أتنشق الهواء الطلق

ـ انى أحب الشجاعة والاقدام .. ولكن ...

وانبعثت من فمه ضحكة شوهاء ، فنظرت اليه متفحصا فاستكمل قوله :

ـ ولكن لا أريد أن أعود بك الى « القاهرة » محمولا على عاتقى !

فصحت به ، وأنا أكظم غيظى :
– سنرى اينا يحمل صاحبه ...
فضرب كتفى يقول :
– لا بأس ... عندما تخور قواى ، سأتسلق كتفيك كأنى طفل رضيع !
وأرسل ضحكته الشوهاء ، ثم استأنف الغناء
ورفيقنا « عبد الحكيم » أعلانا سنا ، وأوفانا تجربة ... خبر الدنيا ، وعرك الحياة ، فقد أباه وأمه وما برح فى الصبا الباكر ، وتراخت صلته بأهله ، فلم يكن له من عائل . ومن ثم شب طليقا لا يخضع فى شأنه لأمر أو نهى . وهو فدائى متمرس ، عمل فى حرب « فلسطين » ، ثم عمل فى معركة القناة ، وأصابته جراح كادت تقضى عليه . وقد انقطعت به سبل التعليم ، اذ حاول النجاح فى امتحان الشهادة الثانوية ، فأخفقت محاولاته ، فثار على المدارس والامتحانات وأخذ يردد :
– الحياة لا تطلب منا علم الكتب ، وشهادات المعاهد ، وانما تطلب منا القلب الجسور ، والساعد الأشد ...
واهتدى صاحبنا الى بعض الجماعات السرية ، فانضم اليها ، وشارك فى أعمالها ، ولكنه ما عتم أن انصرف عنها ، وهو يقول :
– أنا لا أقبل أن اعمل لحساب المستغلين ... اريد ان أعمل فى غير فرض على .. ماذا يظنون بى ؟
ولم يكن يستقر له قرار ، فكان ينظم بعض العصابات ،

ويبث الدعوة هنا وهنالك ، ولا يفتأ يعمل بكل سبيل

وعلى الرغم مما فيه من فظاظة وعنجهية ، وما يبدو من اعتزازه بقوته وسطوته ، كنت أكبر منه الجرأة والتحدى وأمجد فيه الحماسة والاقتحام

ومن عجب أن ثالوثنا ــ على تآلفه ــ يجمع بين شخصيات متنافرة ، الأولى تتميز بالضخامة والتهور ، والثانية شخصية فنان مفتون بالطبيعة ، يعبر عن أفكاره وأهوائه فى مقالات أو رسوم ، والثالثة الأخرى شخصيتى ... مريض مهدوم البنية ، يحاول أن يكون شيئا مذكورا فى هذه الحياة !

ولكن هذا الثالوث ، وان تنافرت مظاهره البادية ، فان ثمة رباطا متينا يلم شمله ، ذلك هو أننا جميعا نألم أشد الألم لما يتفشى مجتمعنا من اختلال ونقص ، ونرغب أصدق الرغبة فى أن نضطلع بعمل موحد فى سبيل رفعة هذا البلد الأمين

وبغتة سكت « عبد الحكيم » لا يغنى ، ونحن نسير والنيل فسكتنا معه ، واذا هو يقف ويظل على صمته لحظات ، وقد تجهمت ملامحه ، ثم يواجهنا بقوله :

ــ ما بالنا نغنى ؟ أليس الغناء دليل فرح وارتياح ؟ مالنا وللغناء ، والبلد فى تعاسة وشقاء ؟

فتصدى له « نزهى » يجيبه :

ــ اننا نتضاحك ونتغنى ، خشية أن تتعالى أصواتنا بالعويل والانتحاب !

فقال له « عبد الحكيم » :

ـ الانتحاب والعويل ؟ أى انتحاب وأى عويل ؟ أتسوغ لنفسك أيها الفنان العظيم أن تبكى ؟ افى مأتم نحن ؟

فقال « نزهى » :

ـ ماذا تريد أن نفعل اذن ؟ اننا بين اثنتين ، فاما طرب وابتهاج ، واما حزن واغتمام . . .

فصاح « عبد الحكيم » :

ـ كلام فارغ . . . أنت يا « نزهى » لاتحسن الاالاعتراض . . . لا تجيد الا الجدال . . .

فضحك « نزهى » وهو يقول :

ـ حمدا لله على أن هناك شيئا أجيده ، أما أنت فماذا أجدت من شىء ؟!

فوقف « عبد الحكيم » فجأة ، واستدار الىذراع «نزهى» يعتصرها فى عنف ، وهو يجابهه بقوله :

ـ أتجرؤ أن تسألنى ماذا أجيد ؟ ألا تعرف مواهبى ؟ أليس لك علم بقيمتى ؟

فاستخلص « نزهى » ذراعه من قبضة صاحبه ، وهو يجيب فى لباقة :

ـ آمنا يا سيدى أن لك مواهب ، ولكن كما يقول المثل : سبع صنائع فى ايدينا ، والهم بائن علينا . . . !

فلم يعقب « عبد الحكيم » على قول « نزهى » ، وواصل سيره ، وخيم علينا الصمت ، ثم سمعنا « عبد الحكيم » يتصايح بقوله :

ـ لا أريد أن أسير فى جنازة ...

واذا هو يتغنى فى تضاحك وتهريج

وتابعنا الخطا ، نتملى صفحة النيل الوادع ، وأستار الظلمة تهبط عليه فى ترفق ، وجوانبه خلاء لا يلوح فيها شراع ...

وآنسنا ضوءا هزيلا تتخايل من حوله ظلال وأشباح ...

هذه قهوة « السويفى » تقوم على مشارف القرية ..

ودخلنا القهوة ، فاذا هى كما هى : حجرة حقيرة يتدلى من سقفها مصباح كدر يتلاعب به الهواء ، ومناضد ثلاث من خشب ناخر ، ومقاعد من قش متهالكة لا تحتمل دعابة جالس ، وأركان موحشة لا يكاد يبلغها الضوء ، ورفوف عليها بعض العلب والأشياء ... لم تكن قهوة « السويفى » مستقلة لهذا الغرض ، وانما كانت قهوة وحانوت بدال فى آن ، ومن فوقها حجرة يقيم فيها « السويفى » وأسرته

وهل علينا صاحب القهوة ، رمادى اللحية ، عريض الوجه ، بارز الصدغين ، وأخذ يمسح المنضدة بطرف جلبابه ، ثم جعل يتفرس فينا قائلا :

ـ يبدو أنكم قطعتم مرحلة طويلة ، فأنتم مجهودون ، عليكم عفرة ، خذوا راحتكم ، الحلبة حاضرة ... منذ زمن بعيد لم تشرف بكم القهوة ... الحمد لله على سلامتكم

ثم صاح :

ـ يا « فلافل » ... يا « فلافل » ...

فلباه صوت مكدود يقول :

ـ حاضر يا معلم ...

وبدأ « فلافل » فى سروال ممزق ، كاشف عن أوصـال معروقة ، وصدار ألح عليه النحول ، وتكاثرت فيه الفتوق وكان حافيا يحمل صندوقه الخاص بمسح الاحـذية ، ويتأبط اضمامة من الورق المقوى تحتوى على بعض الصحف والمجلات

كان « فلافل » يقوم فى القهوة ، بل فى القرية كلها ، بوظائف ثلاث : غلام القهوة ، وماسح الاحذية ، وبائع الصحف ... ولم يكن أحد غيره يزاول شيئا من هذه الأعمال ، فاحتكرها لنفسه دون منافسة ونزاع

وصاح « السويفى » يقول لغلامه « فلافل » :

ـ هلم يا ولد الى أحذية السادة فانفضها ولمعها أحسن تلميع

وسرعان ما أطاع الغلام ما أمر به ، فأقبل علينا يتخذ على فمه ابتسامة ذاوية ، ودفع بصندوقه العتيق تحت قدم « عبد الحكيم » ، واقتعد الارض يتناول بيديه الحذاء ينظفه ويطليه

وأدبر عنا « السويفى » يعد لنا شراب الحلبة ، وجعلت أرنو الى الغلام ، الى هذا الشبح فى ثوبه الهلاهل ، وهو يزاول تنظيف الحذاء فى حركات راتبة عليها ملالة وخمول .. ولمحت « نزهى » يخرج ورقة فيخط عليها رسم ماسح الحذاء فى وضعته تلك

وألفيتنى أبادى الغلام بقولى :

ـ ما بال القهوة فارغة يا « فلافل » ؟

ـ الناس منكمشون يا سيدى ...

ـ كيف ؟

ـ منكمشون فى بيوتهم ... يخشون الخروج !

ـ ولكن البلدة لا يشملها قرار حظر السهر ...

ـ الخوف يسرى فى الناس ، سواء منهم من شملهم قرار الحظر ومن لم يشمل ، والنفوس فى حرج واغتمام

فهمهم « نزهى » وهو ماض فى اتمام رسمه التخطيطى لماسح الحذاء :

ـ انهم أشاعوا الرعب بين الناس ، فأصبح كل امرىء يخاف من خياله

فنابتنى سعلة ، وأحسست رأسى يطوف به دوار ، وجبينى ينضح العرق ، فاجتهدت أن أتغلب على ضعفى ، وقلت :

ـ يجب أن نعمل شيئا ... يجب ...

فرفع « فلافل » بصره الى قائلا :

ـ حقا ... يجب أن تعملوا شيئا ... نريد أن نأكل لقمة الخبز فى هناءة !

وقال « نزهى » وهو يستكمل الرسم :

ـ لقد بلغ بنا الضيق منتهاه ... لست أدرى لماذا لانعمل شيئا ؟

فقلت :

ـ علة البلية ما نحن فيه من فرقة وتفكك ... أتذكرون كيف كانت الأمة يدا واحدة وصوتا واحدا فى ثورتنا الوطنية سنة ١٩١٩ ؟

وقدم « السويفى » يحمل الصينية ، عليها أقداح أترعت بشراب الحلبة ، وكان قد تصيد أطراف الحديث ، فقال على الفور :

ـ ثورة سنة ١٩١٩ .. لله تلك الايام ... كنت يومئذ يافعا أخضر الشارب .. وما أكثر ما هتفت : يحيا الوطن !

وانتهى « فلافل » من تنظيف حذاء « عبد الحكيم » و« نزهى » فتزحزح الى ينظف حذائى ، وكان « عبد الحكيم » يلوذ بالصمت فى أثناء ذلك الحوار ، ولكنه كان صمت المستوفز ، واذا هو ينهض من مقعده بغتة ، ويضرب كتف « السويفى » صائحا :

ـ كم عدوا قتلت فى سنة ١٩١٩ ؟

فوجم الرجل ، وأرتج عليه ، ثم انحى على شاربه يفتله ، وقال :

ـ ماأحسبنى قتلت منهم أحدا ...

فقال « عبد الحكيم » :

ـ اذن فأنت لم تفعل شيئا ...

ـ كيف ذلك ؟ لقد كنت أحمل الراية ، وأصرخ بأعلى صوتى ، والجموع من ورائى تردد الهتافات

ـ ماذا أفدنا من ترديد الهتافات وحمل الرايات ؟ لابد من عمل ايجابى . كنتم الآن تتحدثون فيما يجب أن نعمله

لخير الوطن . واجبنا شيء واحد ، أن نثور ، أن نحارب ، أسامعون ؟

وأمسك « فلافل » عن الحذاء ، ومسح بظهر كفه لعابه المتسايل ، ورأيته يقلب فى وجه « عبد الحكيم » نظرات حائرة

والتفت « عبد الحكيم » الى ورقة الرسم التخطيطى فى يد « نزهى » فتناولها وهو يقول له :

ـ ماذا اسميت هذا الرسم ؟

ـ سميته الهزيمة !

وطفق « عبد الحكيم » ينظر تارة الى الرسم ، وتارة الى « فلافل » ثم صاح :

ـ حقا هزيمة ...

وانطلق يتضاحك فى سخرية

وعجل « نزهى » الى الورقة ، ينتزعها من يد « عبد الحكيم » وهو يقول :

ـ ألم يعجبك الرسم ؟

ـ كيف ؟ انه هزيمة رائعة ، ولكنى أصارحك بأنى لا أحب هذا النوع من الرسوم ... لسنا يا صدقى بحاجة الى من يرسم لنا الهزائم ، نحن أحوج ما نكون الى من يرسم لنا الانتصارات !

فقال « نزهى » :

ـ الانتصارات ؟ وأين هى ؟ انى أرسم ما أرى ... أرسم الواقع ...

وأشار الى « فلافل » وهو يتم قوله :

ـ هذا المنكود الذى نراه بأعيننا انما يمثلنا جميعا فى تلك الفترة العابسة المشئومة من حياة الوطن

فصاح « عبد الحكيم » :

ـ انه يمثلكم أنتم ... أما أنا فلا ... انه لا يمثلنى أبدا ... أنصح لك يا « نزهى » أن تتجه بفنك وجهة اخرى ، وجهة استنهاض واستبشار واعتزام

ثم راح يرمى ببصره من حوله ، وهو يقول :

ـ لا أدرى لماذا توخينا هذا المكان المهجور ؟ بودى أن نتحدى قانون الحظر ، وأن نبرز الى الطريق غير مبالين !

فهمهم « السويفى » :

ـ ان الخارجين على هذا القانون مهددون باطلاق الرصاص عليهم فى غير رحمة

فقال « عبد الحكيم » :

ـ وماذا فى هذا ؟ ماذا فى أن نفقد واحدا أو اثنين أو ثلاثة ؟

فقال « نزهى » :

ـ وأى نفع للوطن فى أن نبذل انفسنا على هذا النحو ؟

فأجاب « عبد الحكيم » :

ـ ليعرف المواطنون أن هنالك احتجاجا عمليا على هذه القوانين الغاشمة

واندفع الى الطريق وهو يقول :

ـ لا أريد أن أبقى حبيس هذا الوكر .. أريد أن اشم الهواء الطلق

ولزمت مجلسى مهتاج النفس ، وألفيت « نزهى » يجرى
قلمه على المنضدة ، يخط عليها خطوطا معتسفة ، وهو
يضرب الارض بقدميه ضربات غير متسقة ، أما « فلافل »
فقد لبث متجمعا بجوار صندوقه واضمامة صحفه ومجلاته
وهو يسارقنا النظر ، وسمعت « السويفى » يهمس :

ـ أقول لكما الحق .. انى أخشى على صاحبكما « عبد
الحكيم » أن يصيبه أذى ... هذا وقت لا أمان فيه

فقلت لاهف الأنفاس :

ـ ليكن مايكون ... فليس هناك وضع اسوأ مما نحن
فيه .. ماذا فى أن يقبضوا علينا ويقذفوا بنا فى المعتقل ؟

فقال « السويفى » :

ـ أتعرف المعتقل يا سيد « سمرى » ؟

ـ كيف لا أعرفه ؟ لقد اعتقل ابى ، بل نفى ، بل جرح
فى سبيل المطالبة بحق الوطن

فرفع « السويفى » رأسه يقول :

ـ لكى تعرف الاعتقال والنفى لابد أن تذوقهما بنفسك
... أما أنا فقد اعتقلت وحبست وذقت ماذاقه أبوك ،
وماذا أفدنا ؟ ذلك هو البلد ، ما زالت أحواله مختلة ،
وأوضاعه سيئة ، والكبراء يأكل بعضهم بعضا ... لمن
تبذلون انفسكم ؟ أخبرونى لمن ؟

فقال « نزهى » :

ـ لنقلب البلد رأسا على عقب ... علينا وعلى أعدائنا

فقال « السويفى » وهو يمسح شاربه :

– أفى هذا الاجراء شىء من العقل ؟

فقلت فى اهتياج :

– أتريدنا على أن نسكت لا نصنع شيئا ؟!

فانهال « السويفى » على شاربه يجتذب شعراته ، وهو يرمق الأفق الحالك من خلال النافذة ، وقال :

– وماذا نملك الا السكوت ؟ فلنصبر حتى يفرج الله الكرب ، ويحل العقدة

وبدا « عبد الحكيم » بباب القهوة ، وقد سمع جملة « السويفى » فقال :

– الله يأمرك أن تحل عقدتك بنفسك .. لا تتشدق باسم الله فى غير معنى

فقال « السويفى » :

– ما هذا يا سيد « عبد الحكيم » ... نحن نقول انك رجل عاقل ، وانك مؤمن بالله ... نحن لا نملك لأنفسنا ضرا ولا نفعا .. الله يفعل مايريد

فقال « عبد الحكيم » :

– ليس فى قولى ما يخالف العقل ، ويجانب الايمان بالله

فتدانى منه « السويفى » ، ومازالت أنامله تعبث بشاربه :

– وماذا نحن صانعون اذن ؟

فقال « عبد الحكيم » جهرة :

– لابد ان يكون لكل امرىء منا هدف يقصد به مصلحة

لوطن ، وخطة مرسومة لبلوغ ذلك الهدف . أحب أن أسألك
يا سيد « سويفى » ... ماذا تطلب أن تحققه لكى تنفع
به وطنك ؟

ففغر الرجل فاه ، وظل صامتا يفكر هنيهة ، ثم قال :

ــ كل امرىء منا يبتغى تحقيق مطالب كثيرة ...

فقال « عبد الحكيم » :

ــ أقصد مطالبك النافعة لوطنك ، والتى يعود نفعها
عليك أنت أيضا ...

ومكث « السويفى » ساهما يحلق بفكره ... لا يجيب
فأدلى « عبد الحكيم » بنظره الى « فلافل » يقول له :

ــ وانت يا « فلافل » .. ماذا تنشد أن تحقق فى دنياك
من الأمور النافعة ؟

فشاعت ابتسامة على الوجه المهزول ، ثم طأطأ رأسه
فى استحياء ، فقال « عبد الحكيم » :

ــ لا تخجل ... كن صريحا ... ماذا تريد أن تحققه
فى الدنيا ، لكى تنفع به بلدك ... انظر الى .. وتكلم ...

فرفع « فلافل » رأسه يواجه « عبد الحكيم » ويقول :

ــ أريد أن أكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين !

فارتجت ارجاء القهوة بقعقعة من التضاحك ، وأغرق
« السويفى » فى قهقهته ، وهو يمسح عينيه ويقول :

ــ سكرتير نقابة الصحفيين دفعة واحدة يا « فلافل » ...
فلتقنع بأن تكون : سكرتير ماسحى الأحذية أولا ..

وأخذ الغلام بما سمع ، فظللت محياه سحابة كدراء وزاغ عنا ببصره ... فقال « نزهى » وهو يكتم ما بقي من تضاحكه :

ـ ولماذا لا يجمع بين المنصبين ؟

ورأينا « عبد الحكيم » ينحاز الى الغلام المتكمش المخذول قائلا له :

ـ تستطيع يا « فلافل » أن تكون سكرتيرا لنقابة باعة الصحف ... ولكن بشرط

فاشرأب « فلافل » يستوضح ، فأتم « عبد الحكيم قوله :

ـ بشرط ان تتدرب على القتال ...

فأقحمت نفسى أسأل :

ـ القتال ؟ ما العلاقة بين القتال وسكرتير نقابة باعة الصحف ؟

فأجاب « عبد الحكيم » مرفوع الهامة ، رزين النبرات :

ـ لا تستطيع أن تعمل شيئا فى الحياة الا اذا أنميت بين جنبيك خصائص الجندية ... تعلم أن تقاتل وأن تصرع العدو ، فان فعلت وجدت الحياة أمامك معبدة الطريق

فقال « نزهى » :

ـ وأنت يا « عبد الحكيم » ... الا تفصح لنا عن هدفك الأكبر فى الحياة ؟ ماذا تطمع أن تحققه ؟

فأسرع « عبد الحكيم » يقول :

ـ عجبا لك ... أما فطنت الى هدفى فى الحياة ؟
فوجدتنى أقول فى فضول :
ـ ناشدتك الله أن تخبرنا ...
فصاح :
ـ هدفى .. هدفى .. أن أنشىء معسكر تدريب ، وأن
[تكونـ]ـوا جميعا تحت أمرتى جنودا فيه ، أعلمكم كيف يكون
[القتـ]ـال ؟ وكيف تصبحون أبطالا تملأ قلوبكم العزة والكرامة
[وتعـ]ـمر جنوبكم الشجاعة والاقدام
وأحدقت نظراته بنا ، ثم استأنف قوله :
ـ ذلكم هدفى .. وقد صارحكم « فلافل » بهدفه ...
[فأخـ]ـبرونى انتم ما أهدافكم
فتبادلنا النظر ، أنا و« نزهى » و « السويفى » ، ولكننا
[لم نـ]ـلفظ من قول
فصاح « عبد الحكيم » :
ـ انى أجيب نائبا عنكم ، أهدافكم ان تعملوا تحت امرتى
[وأن] تذعنوا لما أوجهكم اليه ...

ـ ٤ ـ

[فى] العاشر من فبراير سنة ١٩٥٢
انتكست صحتى أسوأ انتكاس ، وكانت النكسة من
[جر]اء ذهابى الى قرية « الهماميل » سعيا على القـــدم
[وقـ]ضائى الليل بأسره فى قهوة « السويفى » هنالك ، فقد
[عد]ت الى الدار صبحا لا اكاد امسك الرمق ، وكنت اقطع

طريقى متهالكا متداعيا اجاهد واجالد ، واشعر بأنى اوشك أن أسقط ، ولم يشدد من عزمتى الاخشيتى أن يتحقق ماتوقعه لى « عبد الحكيم » ، ونحن الى القرية ماضون ، اذ قال لى انه لا يريد أن يعود بى الى « القاهرة » محمولا على عاتقه !

واضطررت ان امكث حليف الفراش بضعة ايام ، مطيعا ما امرتنى به امى من الاعتكاف ، وقد بذلت هى غاية الوسع فى تمريضى وعلاجى ، حتى أبللت بعض ابلال .

وقد عادنى رفيقى « نزهى » وأعلمنى بأنه أمضى هو و « عبد الحكيم » ليلة فى قهوة « السويفى » ، وقد لاحظ هو على « عبد الحكيم » امعـانه فى التجهم ، واغراقه فى الصمت والتأمل .. وايقن من ذلك انه يسر فى نفسه امرا يزمع القيام به ، ولكنه يعدنا صغارا لا يجدر بنا ان نطلع على اسراره الجسام

وقلص « نزهى » شفتيه ، وقال :

ـ لا يروقنى ان ينطوى « عبد الحكيم » هذا الانطواء ، وأن يكتم عنا خبيئة نفسه .. ألا يثق بنا ؟

فقلت :

ـ ربما كان يرى أن ليس أحد منا نظيرا له ، يوليه ثقته . ماذا نهضنا به من اعمال تدل على الجرأة وصدق الجهاد ؟ اما هو ..

ـ نعلم يا سيدى انه كان بين من تطوعوا فى حرب « فلسطين » ، وانه أبلى مع الفدائيين فى معركة القناة ..

ولكن اصدقنى بربك : مادا غنمنا ؟ نكبنا فى « فلسطين » شر نكبة ، وذهب دم الفدائيين فى معركة القناة هدرا كأنه بعض ماء القناة ..

ـ ليست التبعة عليه فى هذه أو تلك .. حسبه أنه أدى واجبه

ـ ما جدوى الجهاد وبذل النفس يا سيد « سمرى » والأيدى التى تدبر واهنة ، والعقول التى توجه غيرموفورة ؟ ألم تسمع ما كان من امر الجهاد فى القناة ؟ لقد استفحل الاضطراب ، وتفشت الدسائس ، واختلط الفدائيون بالمأجورين والمستغلين ، حتى كاد المجاهدون أنفسهم لا يأمن بعضهم شر بعض

وعمد رأسه بقبضة يده ، وبدا كاسف الوجه يجمجم :

ـ حال لا تسر ..

ـ والأهداف التى تحدث معنا فى شأنها « عبد الحكيم » لقد طالبنا بأن يكون لكل منا هدف يعنيه ..

فأجاب وقد أخفى وجهه بين يديه :

ـ فلندعه اولا يحقق هدفه ، ولننظر ماذا هو صانع ؟

وانصرف « نزهى » عنى بعد قليل ، وقد وعدنى أن يزورنى فى القريب

الحق أنى لم يرقنى ما تحدث به « نزهى » الى ، واحسست غمامة من اليأس تتعقد حولى ، وحاولت ان انفى هذا اليأس عن نفسى ، وجعلت افكر فى الهدف الذى يتعين ان يكون لكل امرىء فى هذا الوطن ، وطال بى التفكير ، فيما

يجب ان يكون لى من هدف ، ولكنى لم اهتد الى قرار .
واعجباه !.. اليس ثمة هدف اسعى الى بلوغه ، تلبي
لنداء الوطن ، وقياما بالواجب له ؟ يا للعار !.. أيجـ
« فلافل » ماسح الاحذية لنفسه هدفا معينا يعبر عنه
وأنا « يسرى السمرى » ابن « مجاهد السمرى » ذل
الوطنى الطيب الذكر ، لا أطمئن الى هدف منشود
وملكتنى سعلة أجهدتنى الاجهاد كله ، وطاف بى الدو
فأرحت على الوسادة رأسى ، وأنا أهمهم :
ـ انه الضعف .. انه المرض .. مأساة حياتى !

- ٥ -

الخامس والعشرون من فبراير سنة ١٩٥٢
ترخصت السلطات فيما كان مفروضا من حظر السهر
وأصبح التجوال فى الليل غير محوط بتلك القيود العاتية
ولكن ما جدواى من ذلك الترخص والتخفيف ؟ انى موثق
الى الفراش ، وقد أقسمت لأمى أن أطيعها فيما تأمرنى
به ، وتلزمنى اياه حتى ينزاح عنى ما ألاقى من أوصاب
أبطأ عنى « نزهى » لا يعودنى ، وكذلك « عبد الحكيم
ومن ثم لا أعلم من كوائن الدنيا المحدقة بى الا ما ترص
الصحف ، وما يلفظه المذياع ، وما اتفه الاخبار الصحفية
والاذاعية فيما أرى .. وانى عن تفاهتها فى غنية وشغل
كانت مسلاتى فى معتكفى ان أخلو الى كنزى الثمين من
اضاميم الصحف والصور ، تلك التى تجلو لى مراحل
جهاد ابى ، وترينى اعماله المجيدة فى خدمة الوطن ، فأعب

من قراءة خطبه ومقالاته واخباره لا يسكن لى ظمأ ، واتملى صوره فى شتى مواقفه لا أمل ترداد النظر

لماذا لا أتخذ أبى مثلا لى أقفوه وأحتذيه ، أغامر فى معترك السياسة ، أو أعمل فى ميدان الاصلاح ؟ لماذا لا أنظم جماعة ؟ لماذا لا أؤلف حزبا ؟ لماذا لا أكون زعيما ؟

ووجدتنى من فرط السرور اصيح :

ـ حقا .. فلأكن زعيمـا على رأس حزب يجـاهد لاستخلاص البلاد مما يرين عليها من شقوة وبأساء

وبينما أنا فى حمية هذه المناجاة ، اذ أقبل على « نزهى » ووجهه أقتم عابس ، فبادرته مهتاجا أقول :

ـ لقد عينت لنفسى هدفا لا أعدوه .. لقـد قررت مصيرى فى الحياة .. سأهيب بالجماهير ان يتبعونى ، وان يتخذونى زعيما امضى بهم فى سبيل اعزاز الوطن .. ووددت ان افضى بهذا القرار الحاسم الى « عبد الحكيم »

فقال لى وهو على حاله مكفهر القسمات :

ـ اتدرى اين مكان « عبد الحكيم » ؟

ـ لا أدرى ..

ـ فى المعتقل .. لقد أخذوه بتهمة خطيرة

فعاجلنى احساس غريب ، هو مزاج من رهبة وحنق ، وجعلت أرنو الى « نزهى » لحظة ، ثم قلت مختلج الصوت :

ـ ما تهمته ؟

ـ ضبطوا لديه أوراقا وأسانيد تكشف خطته لانشاء معسكر سرى للتدريب

وبعد صمت قصير ، واصل « نزهى » حديثه يقول :

ـ هذا هدفه .. وذلك مصيره !

ونظر الى فى جد ، وقال فى اتزان :

ـ أنصح لك يا «سمرى» أن تخفض من غلوائك فى تفكيرك ، وان تستأنى فيما تعتزم من انشاء حزبك !

- ٦ -

اول مارس سنة ١٩٥٢

ألغيت الأوامر الموقوتة التى كانت تحظر السهر ، وعادت الحياة كما كانت .. وعلى الرغم مما كنا نرى من هدوء ظاهر ، فان السخط عام ، ووميض النار يبدو من خلل الرماد ، الناس يغشاهم خمول ، والجو من حولهم طامس ، لكأن فيه سحبا ثقالا تسبح فوق الرءوس ، ولكنها سحب لا تنفض ما تختزن من ماء ، ولو اتيح لهذا الماء ان ينهمر ، لانقشعت على أثره الغيوم الثقال ، وأسفرت عن صحو واشراق

بارحت فراشى ، وانا اشعر ببعض التماثل ، ولكنى فى الحق اغالب واجالد ، فما عاودتنى العافية موفورة ، وانى لا أكاد أنطلق شيئا حتى أجدنى مضطرا أن أخلد الى فراشى يوما أو بعض يوم

لم تعد لى طاقة بالتزام أوامر الطبيب ، ولذلك ثارت أمى على ، ونشبت بيننا الخصومة ، فكنت تارة اهادن وتارة أتحدى

ولقد استؤنفت الدراسة فى كليات « الجامعة » ، فلم اكن اذهب الى كليتى الا لماما .. ليس لى على الدراسة جلد ، ولا انا بها مشغوف ، اعترف بذلك جهرة ، بل اقول انى ابلغ فى ذلك حد الكره .. بنفسى ملالة من كل شىء

غابت عنى انباء « عبد الحكيم » ، اما « نزهى » فكان يزورنى فى الحين بعد الحين ، فنمضى الى الطريق نتسكع ونتناقل لغو الحديث ، وربما عدلنا الى بعض المشارب نستريح ، فنقضى ساعة نتثاءب ، واذا عز التثاؤب على « نزهى » أخرج كراسته وقلمه وطفق يرسم ، ثم لا يعتم أن يمزق ما خطت يداه !

وساقنى « نزهى » مرات الى مقاصف الليل ومساهره ، يبغى بذلك ان يتصيد المواقف المثيرة ، والشخصيات الطريفة ، ليجعل منها مادة لفنه ، واذا هى على قلمه رسوم

ويوما قلت له :

ـ لماذا لم تلق بالا الى ما نصحك به « عبد الحكيم » حين أوصاك بأن تتخير لرسومك مشاهد جد ، وان يكون لك من ورائها هدف رفيع ؟

فأجابنى ، متلاعبا بقلمه :

ـ لقد حاولت ، فلما عرضت نماذجى فى هذا السبيل على الصحف التى اعمل بها لم تقع موقع القبول ، ان القائمين على هذه الصحف يؤثرون المغريات ، ويتقاضوننى ان اقدم لهم ما يصلح للتسلية والتفكيه والابهاج .. طوعا لأهواء القراء !

وسرح ببصره لحظة ، ثم مال على اذنى يهمس :

ـ لقد اتممت رسما عظيما ازمع تقديمه فى احد المعارض، فان عز على ان اعرضه فى « مصر » فسأعمل على عرضه فى « أوروبا » ..

ـ فى « أوروبا » ؟..

ـ ولم لا ؟ لو كان « عبد الحكيم » غير معتقل ، ورأى هذا الرسم ، لرقص طربا ..

وشرع يقلب صحائف كراسته ، ثم اشار الى رسم فيها وهو يقول :

ـ ذلك نموذج مصغر للوح الفنى الذى اعددته .. انه تخطيط ينقل اليك الفكرة .. انك لا تشهد أول وهلة الا رسم مدفع كبير مصوب الى قلعة عابسة متجهمة . .ولكن دقق النظر فى رسم المدفع .. الا تستبين شيئا ؟!

وتفرست فى الرسم ، فاذا أنا أرى أجزاء المدفع تكشف عن صور جنود من شباب الوطن يتجلى فيهم حماس

ومكثت مليا أرنو الى الرسم ، وأنا معجب بما يرمز اليه . ثم امسكت بيد « نزهى » اهزها قائلا له :

ـ مرحى .. مرحى .. انه رسم فريد .. اهنئك !

ـ ٧ ـ

اول ابريل سنة ١٩٥٢

طاب لى مع صاحبى « نزهى » هذا اللون من الحيـاة حياة التبطل والسهر . ارجع الى البيت فى اعقاب الليل ،

فتتلقانى أمى باللوم والتعنيف ، ولكنى كنت لا أعبأ بقولها ولا اصيخ ، فاذا لجت فى ملامها اغلظت لها فى الرد ، واسكتها بكل سبيل ..

ولم نكن نكتفى ــ انا و « نزهى » ــ بالمقاصف والمساهر ، ندلج اليها اكثر الليل ، بل اخذنا نرتاد الحدائق العامة فى الضحوات والأصائل ، يلذ لنا أن نتعقب الفتيات فى مغدى ومراح ، فنغازل منهن من نأنس فيهن الملاينة ، ونجد فى ذلك متعة وسلوى

واهتدينا الى فتيات ثلاث ، لكل منهن ميزة ، الأولى بادنةمكتنزة ،والثانيةشقراء واضحةالشقرة ،والثالثةالأخرى سمراء شديدة السمرة ، وقد اصطفين دكة خاصة فىحديقة النهر ، على طرف الجزيرة ، فهن يجلسن عليها ساعة فى عصر كل يوم ، لا يتخلفن ، ولا يتفرقن ..

وأخذنا أنفسنا بأن نجوز بهن مرة بعدمرة ، وأن نخالسهن نظرة بعد نظرة ، ثم مددنا شباك الحديث اليهن ، فأصممن أسماعهن ، ولم تلح لنا منهن بارقة ارتياح

وعلى مر الأيام تم بيننا وبين الصواحب الثلاث تعارف ، ولكنه تعارف صامت عقيم ، فاذا نحن بدونا حيالهن لم يستطعن مغالبة الابتسام ، ومال بعضهن على بعضيتهامسن فى رفق ، ثم اصطنعن الجد ، واستأنفن ما كان يدور بينهن من حوار .

ومرة اخذنا مجالسنا فى ظل شجرة ضخمة تقوم عن كثب من الدكة المعهودة ، وبقينا نرقب هؤلاء الأوانس ،

وأخرج « نزهى » كراسته ، وشرع يجرى قلمه على الورق ونظراته تشخص الى ثلاثتهن آنا بعد آن .. وشعرن بأن صاحبى لا بد يرسم صورهن ، فوضحت عليهن مخايل الاهتياج

ولما أكمل « نزهى » رسمه أرانى اياه ، وهو يتضاحك ويقول :

ـ ما قولك فيما ترى ؟

فما وقع بصرى على الرسم حتى صحت مشدوها :

ـ رائع .. ولكن ..

فتعجلنى يقول فى صوت عال :

ـ ماذا ؟

فاستدركت اقول :

ـ لا شىء !

لقد كان الرسم يمثل سرب الفتيات فى غلائل شفافة ، فهن يتجلين كأنهن عاريات .. ولبثنا نتناقل الرسم ، ونتبادل الضحك ، وبدت على الفتيات ملامح الاستطلاع والقلق ، وشاهدنا الفتاة البادنة تخطو نحونا ، فعرانا صمت، وما ان دانتنا حتى مدت يدها الى « نزهى » تقول :

ـ هل تأذن لى فى أن أرى الرسم ؟

فاستجاب لها الصديق ، ودفع اليها بالورقة ، وعلى شفتيه بسمة ، فما القت على الرسم نظرة حتى انطلق لسانها بالشتم والسباب ، وهرعت اليها صاحبتاهاتشتركان معها فى التصايح والاستنكار .. ثم امسكن قليلا تتجمع

انظارهن على الرسم يتوسمنه ، وبغته علت ضحكاتهن مصلصلة ، وهن يشرن بالانامل الى الورقة فى اهتياج . وما هى الا ان تزاحمن وتدافعن ، تبغى كل منهن ان تكون فى حوزتها الورقة ، فأقبل عليهن « نزهى » يفض بينهن هذا النزاع وهو يقول :

ـ على رسلكن .. سأرسم كلا منكن على حدة !

وارتفعت اصواتهن دفعة يقلن :

ـ حقا ؟!

ولـكنهن استدركن ، وأشحن عن الورقة بوجوههن ، وكانت أجرأهن الفتاة البادنة ، اذ استبقت الرسم فى يدها ، وواجهت « نزهى » تقول له :

ـ الا تعترف بأنك قليل الحياء ؟

ـ أعترف .. أنعتينى بكل ما تهوين من نعوت ، ولكنى مستطيع ان اثبت لك دائما حسن نيتى ..

وتدخلت اقول :

ـ اقدم لكن صديقى « نزهى » الفنان المشهور .. صاحب الرسوم الساخرة التى تزين الصحف والمجلات

فقالت البدينة ويدها فى خصرها :

ـ لم نحظ بأى شرف يا سيدى !

فسارعت الشقراء والسمراء تتضاحكان

وقال « نزهى » :

ـ مادمت يا سيدتى لم تحظى بأى شرف ، فهاتى الرسم

فأجابته كاسرة العين :

– ان هذا الرسم أصبح من حقنا نحن ، وخاصة لأنك اظهرتنا فى هذا الوضع الشائن ..

فوجدتنى اقول :

– اقترح تمزيق الورقة ، انهاء للاشكال ..

فقالت البدينة :

– حقا يجب ان تمزق الورقة ، وسأتولى انا تمزيقها بنفسى !

وامسكت بالرسم ، كأنها تهم ان تفعل ، والفيت السمراء والشقراء تنظران اليها فى انزعاج ، واذا أنا أرى الآنسة البادنة تطوى الورقة فى ترتيب ، وتودعها حقيبة يدها فى عناية ..

فصحت :

– حسنا فعلت

واضفت قائلا :

– هل تسمحن يا آنساتى ان اقدم لكن شيئا من المرطبات للترفيه !

فتبعنى « نزهى » يقول على الأثر وهو يهز كتفى :

– وكيف لا يسمحن ؟ هيا يا « سمرى » .. مكان البائع قريب

والتفت الى الفتيات يقول :

– اقدم لكن صديقى « يسرى السمرى » فتى ظريف ، حاز البطولة فى الامتناع عن الدراسة بكلية الحقوق ، ولكنه فنان يجيد تقديم المرطبات ، وله فى اختيارها ذوق رفيع

ولم يطل غيابى . فعدت محملا بزجاجات الأشربة الفوارة مختلفة الألوان ، ووجدت « نزهى » مشتبكا مع الاوانس فى الحديث ، وقد ارتفعت بينه وبينهن الكلفة ، كأنه يعرفهن من قديم

وصففت الزجاجات على الدكة ، ووجهت حديثى الى الثلاث الآنسات أقول :

ـ أليس من حقى أن أشرف بالأسماء الكريمة ؟

وماكدت أفرغ من جملتى ، حتى سبق « نزهى » يقول :

ـ فاتنى أن أقوم بتعريف صديقاتى لك يا « سمرى »

وأشار الى البدينة يقول :

ـ الآنسة « ولعة »

ثم أشار الى الشقراء ، وقال :

ـ وهذه « فلة »

وأردف قوله مشيرا الى السمراء :

ـ وتلك « سمسمة »

ورأيتنى تنعقد عينى بالآنسة الشقراء « فلة » أتملى صفاء محياها الوديع ، فأنبهنى « نزهى » الى توزيع الزجاجات على الجمع ، فبدأت بالشقراء ، وعنيت بأن أنزع لها سداد الزجاجة ، وان امسح مكان السداد بمنديلى الخاص ، فأولتنى ابتسامة متلطفة ، وأسبلت جفنيها تقول :

ـ شكرا لك . . .

فغمرتنى البهجة ، وأنا أعقب بقولى :

ـ بل الشكر لك على القبول

ثم مددت يدى الى الآنسة البادنة « ولعة » باحدى

الزجاجات ، وفاتنى أن أنزع سدادها ، فاستدركت أفعل ، فأسرع « نزهى » يأخذ منى الفتاحة ، ويتولى ذلك عنى ، ورأيته يخرج منديله ، ويمسح مكان السداد من الزجاجة ، كما صنعت ، فأشرق له وجه صاحبته ، وقالت وهى تخفض بصرها :

ـ أتعبت نفسك .. شكرا لك !

وألفيتنى أجاذب « فلة » الحديث ، أتصيده من هنـــا وهنالك : الحديقة هادئة ... الجو لطيف ... الســماء رائقة !

وامتدت يد سمراء بالغة الدكنة الى الزجاجات المصفوفة تجتذب منها واحدة ، واذا هى يد « سمسمة » ، فقلت أتصنع الدهشة :

ـ لاتؤاخذينى يا آنستى ... سهوت عنك

ورجوت منها أن تناولنى الزجاجة ، لأنتزع منها السداد ، فقالت فى حدة تحاول اخفاءها :

ـ لا ... أنا شاكرة !

فبسطت لها يدى بالفتاحة ، فقالت فى اهمال :

ـ لا حاجة لى بها ...

وسرعان ما أسندت الفتاة طرف السداد الى حرف الدكة وضربت بيدها على السداد فأطاحت به ، وجعلت تصب الشراب فى حلقها صبا ، وما لبثت أن قذفت بالزجاجة وهى تتضاحك فى اهتياج . فصاح « نزهى » :

ـ مرحى ... مرحى ... لم أكن أدرى أن الآنسة « سمسمة » احدى بطلات السرعة فى شرب القازوزة ،

سيكون لك شأن بلا ريب فى المباريات العالمية القادمة ...
أمعتزمة أنت الاشتراك فيها ؟
فقهقهت تجيب :
ـ ولم لا ؟ ومن يشترك فيها اذا أنا لم أشترك ؟!
فقالت الفتاة البادنة « ولعة » :
ـ انها تقوم بالتمرينات منذ الآن !
وألفينا « سمسمة » تعجل الى زجاجة أخرى ، فتحذو بها ذلك الحذو ، تنزع بيدها السداد ، وتعب الشراب دفعة وتلقى بالزجاجة فى عنف ، فتصايحنا متهللين ، وملت عليها أرفع ذراعها وأقول :
ـ كسبت الجولة الاولى فى مباراة اليوم
ونحا « نزهى » نحوها بقطعة من ورق كورها على شكل كأس ، وانحنى أمامها يقدمها لها ويقول :
ـ يسرنى أن أقدم لك الكأس الفضية ، اعترافا بفوزك !
فاشتركنا جميعا فى تصفيق حاد
وانبسطت أسارير « سمسمة » ، وزال عنها ماكان يعروها من ضيق ، وما هى الا أن أقبلت علينا بوجهها تسرد قصص بطولتها فى احتساء الأشربة ، وذكرت أنها تناولت فى جلسة واحدة عشرا من فنجانات القهوة ، وعشرة من أكواب الليمون ، ومثلها من اقداح السحلب الساخن
وتركت « سمسمة » تقص مغامراتها فى هذا المضمار وانصرفت الى الشقراء « فلة » أجاذبها أطراف الحديث ، ولكنى لم أستطع ان أجاوز بها حديث الحديقة الهادئة ، والجو اللطيف ، والسماء الصاحية . وأخيرا وجدتنى أقول :

– لست أدرى لماذا أحس اليوم بأن الحديقة كلها يضو
منها عطر « الفل » ذلك العطر المنعش اللطيف !
فتضاحكت « فلة » تسأل :
– ومن أين جاءها عطر الفل ياترى ؟
– حقا ... من أين ؟
وابتسمت وأنا أداعب اناملها ، ثم أتممت قولى :
– فلنبحث أنا وأنت عن ذلك السر ...
وبينما نحن نتلقط مناسبات الاحاديث البهيجة ،روعت
فرقعة على مقربة ، فالتفتنا نتبين ، فوجدنا « سمسمة
قد أطاحت برقبتى زجاجتين من زجاجات الأشربة الفوار
وصاحت :
– فى حب السادة العشاق !
وراحت تشتف الزجاجتين واحدة تلو الأخرى ، ورمت
بهما بعيدا كشأنها من قبل ، ولاحظت ساعتئذ أن « نزهى
قد انتحى بصاحبته « ولعة » غير بعيد ، كما انتحيت أ
بصاحبتى «فلة» ، وصفقنا جميعا نحيى صنيع «سمسمة
ولكنها لم تأنس بتصفيقنا ، بل قالت فى احتداد :
– ماذا أنتم منتظرون ؟ ألا تخشون أن يلمحكم حارس
الحديقة وقد جاوزتم الحد ؟ اتريدون ان نخرج مطرودين
كفى يا جماعة .. العقل زينة !
وتواعدنا على لقاء قريب

— ٨ —

آخر ابريل سنة ١٩٥٢
ترادفت ملاقاتنا للثلاث الاوانس فى أيام معلومة من كل

أسبوع ، وألفت صحبة « فلة » ، فبادلتنى الفة بألفة ، حتى استأثرت بها واستأثرت بى ، وكذلك كان شأن « نزهى » و « ولعة » مؤتلفين يستأثر كل منهما بصاحبه

أما « سمسمة » فقد انتهى بها السخط الكظيم والاهتياج البادى الى لون من الاستسلام والرضا بما هو مقسوم ... كانت تختلف الى الحديقة مع « فلة » و « ولعة » فى كل لقية ، وترافقنا الى كل جهة ، فتقاسمنا مانحن فيه من امتاع ، وقد اطمأننا الى مكانها منا على هذا النحو ، وأنسنا بما تشيعه بيننا من روح البهجة ، ووجدنا بهاوسيلة الى الانطلاق حينا بعد حين من حرج الجلسات الثنائية الخاصة ، والاندماج فى جلسات عامة مشتركة ، ننفى بها ماعسى أن يكون من سآمة وملال

على أن جلساتنا العامة لم تكن تخلو من بعض تصرفات جريئة ، بينى وبين « فلة » ، أوبين « نزهى » و « ولعة » فكانت « سمسمة » تغض الطرف عنها تارة ، وتتصدى لنا تنهانا أن نتمادى فيها تارة أخرى

وألفيتنى أتجاسر على مداعبة « فلة » وأتعمق ، فتعلمت هى منى أن تكون جريئة معى ، واستطعت أن أخرجها مما كانت عليه من زماتة وتحفظ ، ووجدتنى أطرب لذلك طربا لم يكن لى بمثله عهد ، ولكن هذا الطرب والارتياح كان ينقلب عندى أحيانا الى سهوم وانقباض ، حين أراجع نفسى ، ألومها على ماكان منى !

وعلى مر الايام تيسر لنا أن نغرى الفتيات الثلاث بأن

يطلن معنا الجلوس والتنقل ، وأن يمتد لقاؤنا لهن هزيعا من الليل ، وكنا نعينهن على صوغ الاكاذيب ، يسوغن بها ذلك السهر لاهلهن ، فيتزودن بها حين يرجعن الى بيوتهن مبطئات

وذات ليلة ، ودعنا الفتيات الثلاث على وعد باللقاء فى يوم آت ، ومضيت أنا و « نزهى » نواصل سهرتنا متسكعين فى الطرقات والمسالك ، وألقيت نظرة على ساعة يدى ، فدهشت وقلت لصاحبى :

ـ أتدرى كم الساعة الآن ؟

ـ كم ؟

ـ الثانية عشرة

ـ ماذا تعنى ؟

ـ هذا منتصف الليل !

ـ وماذا فى هذا ؟ .. بقى النصف الآخر ؟!

ـ لقد احتجزنا الفتيات الى هذا الوقت المتأخر ، كيف يكون موقف أسرهن منهن ؟

ـ فليكن ما يكون !

ـ أيليق بنا أن نحرج هؤلاء الفتيات ، وأن نزج بهن فى المآزق ؟

ـ لقد رضين بصحبتنا ، فيلتحايلن على ذويهن ما استطعن اننا لم نرغمهن على أن يسايرننا .. دعك يا صديقى من هذه الوساوس !

فصمت هنيهة ، وأنا أخفض رأسى ، انظر الى موطىء قدمى ، ثم شخصت الى « نزهى » أقول له :

ـ يبدو أننا تغالينا فى صحبة هؤلاء الفتيات ، وأشعر بأن علينا التبعة فى اغرائهن بأن يسلكن طريقا غير سوى ..

فتضاحك صاحبى يقول :

ـ طريق غير سوى ؟ .. انك تهذى .. هل جرى منا ما يسىء اليهن ، أو يشين سمعتهن ؟

ـ لقد تعلمن منا ان يكرعن أقداح الجعة ..

ـ انها شراب مفيد .. ولا يستنكر من الفتيات أن يتعاطينها فى غير سرف ...

وهنا أخرج من جيبه زجاجة ، ولوح بها متضاحكا يقول :

ـ أما هذا « البراندى » فحرام على الفتيات !

ونقر الزجاجة بأصابعه ، وهو يردف :

ـ فى صحتك !

وجرع جرعة وافية ، ثم قال وهو يمد الزجاجة الى :

ـ هل لك فى رشفة ؟

فنحيت يده عنى ، وانا أقول :

ـ الطبيب يحظر على أن أشرب « البراندى » ...

ـ حسنا ... يجب أن تذعن لرأى طبيبك !

وخطونا بضع خطوات ، واذا انا اقول لصاحبى :

ـ اسمع يا « نزهى » ... أخشى أن يقع للفتيات منا ما نكره ...

ـ ما زلت تتحدث فى شأنهن ؟ !

ـ نعم .. .أعترف لك بأن موقفى لم يكن رزينا مع « فلة » بعد أن تساقينا أقداح الجعة ..

ـ حين اختليت بها فترة قصيرة ؟
ـ نعم ...
ـ ماذا صنعت يا بطل ؟
ـ تبادلنا القبلات فى نشوة ، وتعانقنا فى حمية ..
فصلصلت ضحكة « نزهى » وهو يقول :
ـ الليلة أول مرة ... لقد سبقتك الى ذلك مع « ولعة » منذ أسابيع !
ـ وماذا بعد التقبيل والعناق ؟ يجب وضع حد لهـذا العبث ، ان « فلة » و « ولعة » تعدان نفسيهما مخطوبتين لى ولك ...
ـ لكل منهما أن تعد نفسها كما تشاء ، ولكننا لا نعد نفسينا مخطوبين لهما ..
ـ الا يكون هذا تصرفا غير كريم .. غير نبيل ... غير شريف !
فكرع « نزهى » من زجاجة « البراندى » وأخذ بيدى يضغطها بشدة ، وقال :
ـ حسبك .. حسبك .. لا تلفظ بكلمـــات الكرامة والشرف والنبل ياصديقى العزيز
ورفع عقيرته بقوله :
ـ أتريد أن نكون انا وأنت وحدنا نبيلين شريفين كريمين نتصرف فى حدود اللائق ... ألست ترى الدنيا من حولنا كيف تجرى فيها الامور ؟ الست ترى فى أى جو نعيش ؟
وصب فى فمه جرعة ثالثة ، فاجتذبت الزجاجة من يده وصحت به :

ـ لقد أفرطت فى الشرب ... وكفى !
ـ لماذا تمنعنى أن أشرب ؟ الا تحفظ القولة المأثورة : « اليوم خمر » ؟!
ـ وهل نسيت تكملة الجملة : « ... وغدا أمر » ؟!
فحملق « نزهى » فى وجهى مليا ، وهو يرسل ضحكات متشعثة ، وقال :
ـ هذا خطأ ... ليس هناك أمر ... اليوم خمر ، وغدا خمر ... وبعد غد يلتقمنا القبر .. انه ينتظرنى وينتظرك ...القبر يا حبيبى « سمرى » ... الحقيقة العظمى فى الحياة ، والنهاية الخالدة لكل حى ... وما عداه هراء !
ـ ولكن يا « نزهى » لا تنس أن للحياة أهدافا ... أنضيعها ؟!
فوقف « نزهى » باسطا لى ذراعيه ، فاغرا فاه ، وقال :
ـ حقا ... ذكرتنى ... نسيت الاهداف ... أين الاهداف ؟ .. فلتحى الاهداف !
وهجم على ينتزع الزجاجة منى ، وهو يردد :
ـ أين الاهداف ؟ نسيت الاهداف ... فلتحى الاهداف !
فوجدتنى أرفع الزجاجة الى فمى ، أرويه بجرعة ، ثم أسلمت الزجاجة اليه ، وجلسنا على الطوار فى ركن من الطريق نتساقى ونتضاحك ، وشعرت برأسى يدور ، وبصرى يزيغ وماهى الا أن رأيت « نزهى » وقد عرته جهامة ، واستغرق فى صمت ... وبغتة سمعته ينشج ، فجعلت أرقبه فى قلق فاذا نشيجه يزداد ، فطفقت امسح على رأسه الاطفه ، وأقول له :

ـ خفف عنك ! فيم تنشج ؟

فارتفع نحيبه ، وقال :

ـ هل تعلم انى فقدت اللوح الفنى العظيم الذى رسمته : « المدفع » ؟.. فقدته الى الابد ... لقد مزقته شر ممزق ، فى ساعة يأس مرير ... لقد كان لى هدف عينته لنفسى ، هو أن اقيم معرضا فى « روما » ، وأن يكون هذا اللوح عروسا فيه ... أما الآن فلا معرض ... ولا عروس ... ولا هدف !

ـ ٩ ـ

الخامس والعشرون من مايو سنة ١٩٥٢

يا للسهرة الماضية التى شربت فيها « البراندى » حتى ثملت .. لقد كلفتنى ثمنا غاليا ... لقد ألزمتنى السرير أياما متوالية ، وجددت لى نوبات السعال ، وتركتنى انفث الدم عودا على بدء ... فاستبان فى الهزال ، وازددت ضعفا على ضعف ... وماأن استشعرت بعض العافية ، حتى ثرت على رقادى الممل ، وغادرت البيت ، غير مكترث بالحاح أمى على أن أظل رهين الفراش ...

عدت استمرىء حياة التصعلك والشرود ، أخرج أياما وتقسرنى العلة على الاعتكاف بعض حين ... ورأيتنى مستخفا بشأنى كله ، لا أجد فى الدراسة الا عبثا من العبث فاذا ضمتنى الكلية شعرت بأنى سجين ، وكان يشركنى فى هذا الشعور كثير من الطلاب ، نلتقى فى أرجاء «الجامعة» حلقات ، فنسير مخفوضى الرءوس ، نتداول الاخبار ،

ونتطارح الاحاديث فى همس ، وعلى وجوهنا سخط واكتئاب . وكنا نحس بأن الايام مقبلة بنا على أمر جسيم لا نكتنه مداه ، ولا نعرف عقباه ...

أما صاحبنا « عبد الحكيم » ، فقد احتجب عنا شأنه ، فكأنه اصبح فى عداد الموتى ، لا نذكره الا كما نذكر الراحلين الذين غيبتهم أطباق الثرى ، ولم يعد لهم فى حياتنا حساب ... وأما صلتى أنا ورفيقى « نزهى » بالفتيات الثلاث فقد كانت تتوثق يوما بعد يوم ، نتلاقى فى حرية ، ولا نخشى من رقيب !

ويوما ، والشمس مؤذنة بغيوب ، مضيت أجرر الخطا أنا و « نزهى » ، فى « شارع سليمان باشا » ، لغير قصد ، والى غير وجهة ، وكانت حافظة نقودى منفضة ، وكذلك كان « نزهى » فى افلاس ، وكنا على شر حال من التأفف والبرم ، نسب الارض ومن عليها ، ولا يروقنا مما حولنا شىء ... وجنحت الى « نزهى » أقول :

ـ أتراك نسيت موعد الثلاث الاوانس ؟

ـ لست ناسيه .... فلنخلفه !

ـ كيف !

ـ واعجبا لك يا « سمرى » !... ألسنا مفلسين ؟ أنذهب للقاء الفتيات وقد خلت من النقود يدى ويدك ؟

ـ علينا أن ندبر الامر ...

ـ لا حيلة لنا الا السرقة ..

ـ السرقة ؟ حقا ... فلنكن لصين فى سبيل الحب والغرام !

وفرطت منا ضحكات بشعة ، مالبثت أن أسلمتنا الى صمت ثقيل ، ولما بلغنا غاية الطريق عند « شارع فؤاد » عدنا أدراجنا ونحن على صمتنا فى وجوم ، ولمااحتوانا « ميدان سليمان باشا » ألفيت « نزهى » يحيد الى « شارع قصر النيل » المفضى الى « ميدان الاسماعيلية » ، فقلت من فورى :

— الى أين أنت ماض بى ؟

— لا شىء الا أن نبدل الطريق ، تجديدا للمناظر ... أما كفاك التردد فى شارع واحد ؟

— والموعد يا « نزهى » ؟

فصاح غاضبا :

— أى موعد ؟ ألم أقل لك انه لا سبيل الى لقاء الفتيات ، وكلانا مفلس ؟!

فأجبته مغضبا مثله :

— عار علينا اخلاف الموعد ... هذا يجانب المروءة .. يجب أن ندبر الامر

— فليكن تدبير الامر اليك ياصاحب المروءات !

ومررنا « بنادى السيارات الملكى » ، وكنت أسمع من شأنه الكثير ، وأعلم أنه مثابة السراة والكبراء والحكام ، يمارسون فيه أفانين المتع ، ويستمرئون ألوان الملذات ، فألقيت عليه نظرة المغيظ ، وقلت لصاحبى :

— هنا يأكلون أشهى الأطعمة ، ويكرعون أفخر الشراب ، ويحيون الليالى الملاح فى اللهو المباح وغير المباح ...

فقاطعنى « نزهى » يستكمل ما أتكلم فيه ، فقال :

ـ ولا تسلية لهم الا بذل النقود .. يلعبون بها على المائدة الخضراء ، كأنهم لا يجدون للمال مصرفا الا فى المعابث !

ـ وهذا على حين أن أمثالنا لا يجدون فضلة من المال تنقذهم مما يتورطون فيه ، وتحفظ عليهم ماء الوجوه ، وتعينهم على الوفاء بالعهود والمواعيد !

وجاوزنا النادى ، يسبح فى لألاء باهر ، ببابه الخدم والحجاب فى حلل مزركشة ثمينة ، وعلى طريقه صفوف متراصة من السيارات الفارهة الانيقة ، ولاحظت أن « نزهى » يتعهد تلك السيارات بنظرات الاعجاب ، ورأيته يقف بغتة امام احداها يتفرج ويتفحص ، وكانت فى ركن محتجب عن الاضواء ، وجعل يهمهم :

ـ أليست هذه سيارة صديقك « شكرى » رفيقك فى « الجامعة » ؟

ـ حقا ... انها هى ... سيارة رشيقة !

ـ صديقك « شكرى » شاب سعيد الحظ ...

فقلت له وهو يدور ببصره حول السيارة فى شغف :

ـ انه سعيد الحظ فى كل شىء ... حسبه أنه بهذه السيارة يستطيع أن يجمع صباح كل يوم من « ميدان العتبة » سربا من أترابه الاوانس طالبات « الجامعة » ، فيذهب بهن الى « الكلية »

ـ عرفت منك هذا الحديث .. ما ألطفها مهمة ... مرافقة الطالبات الى « الجامعة » فى سيارة خاصة !

ـ انه يعتز بهذه المهمة ويفخر ..

ـ ما أسخفه !

– وما أشد رقاعته !

وتابعنا سيرنا ، ننعت « شكرى » بألفاظ ترادف الرقاعة والسخف ، ثم أمعن « نزهى » فى صمت ، واذا هو يقف بى ونحن فى « ميدان الاسماعيلية » ويأخذ بذراعى لنعود فقلت :

– الى أين ؟

– نرجع من حيث أتينا ... الى « شارع قصر النيل »

... السنا نتسكع ؟ افى ذهنـــك وجهة سير ؟ ان كانت لديك فأخبرنى !

– وجهتى باب حديقة النهر ... ألا تذكر ؟ لقد حل الموعد ، والفتيات الثلاث هنالك ينتظرن

فتضاحك « نزهى » ، ولم يغضب من هذا الحديث كما غضب من قبل ، ومسح على كتفى يقول :

– فلينتظرن ... ما أسوأ حظهن ، اذ أوقعتهن المقادير فى صديقين ليسا من طراز « شكرى » الذى يملك سـيارة رشيقة ، وفى مستطاعه أن يمضى بهن فيها للنزهة ، كمـا شئن وشاء !

وسرنا نتمهل ، غير بعيد من « نادى السيارات الملكى » وواجهتنا السيارات المصفوفة على جانبى الطريق ، فأخذنا نحدق ونتفرج ، ولما دنونا من سيارة صديقى « شــكرى » خفف « نزهى » من خطوه ، ودار بنظره حوله ، ثم أمسك بذراعى يميل بى نحو السيارة ، وما ان حاذيناها حتى أسرع « نزهى » يفتح بابها دون تكلف ، كأنها سيارته ، وقبل أن أنطق بكلمة ، دفعنى الى الدخول ، واحتل هو

مكان القيادة ، وسرعان ما تحركت السيارة ، وقد ألجمت الحيرة والدهشة لسانى ...

وفى خطفة البرق كنا فى « ميدان الاسماعيلية » بجوار مبنى الثكنات ، فقلت :

ـ ما هذا يا « نزهى » ؟

فأسكتنى يقول :

ـ يجب أولا أن نعبر جسر « قصر النيل » ...

وطوت السيارة بنا الجسر ، والافكار المهوشة تتناوح فى رأسى ، وفى « شارع الجزيرة » عن كثب من حديقة النهر وقفت السيارة بمنأى عن الاضواء ، وقفز منها « نزهى » يقول :

ـ مكانك ... سأعود اليك بعد قليل ..

ولبثت فى مجلسى ، أشعر بشىء من الذعر ، وأكثر التلفت حوالى ، حتى تراءت لى أشباح أربعة ، صافحت سمعى من جانبها أصوات معهودة لى ، وشاهدت « نزهى » يفتح باب السيارة ، والفتيات معه يتواثبن داخلات فى تصايح بهيج فقال لهن صاحبى :

ـ على رسلكن يا آنساتى العزيزات ، التصايح ممنوع بأمر صاحب السيارة « يسرى السمرى بك » !

وجابهتنى « فلة » تقول :

ـ أحقا ياصاحب العزة انك أصدرت أمرك بمنع التصايح ؟

وأردت الكلام ، فكنت أنتزع النطق من حلق أدركه الجفاف ، وألفيتنى أقول دون ان استطيع استدراك نفسى :

ـ يجب أن يشملنا الهدوء ، حتى نبرح منطقة الخطر

ودقت « ولعة » صدرها بيدها تقول :

ـ خطر ؟ بعد الشر ... أى خطر ؟

وانتظمتنا مجالس السيارة ، على هذا الترتيب : «نزهى» فى مكان القيادة ، لانه كان خبيرا بقيادة السيارات دونى ، وبجواره جلست صديقته البادنة « ولعة » تحشر أوصالها حشرا . أما أنا فكنت على أريكة الخلف فى الوسط ، عن يمينى « سمسمة » السمراء ، وعن يسارى صاحبتى « فلة » الشقراء ، وما ان استقر المقام « بفلة » حتى تحسست يدى وأطبقت عليها تضغطها فى تشوق ، فطوقت خصرها بذراعى وأنا صامت مأخوذ

وسلكت السيارة سبيلها الى « شارع الاهرام » ، وفى بعض الطريق لوت « ولعة » عنقها الى تقول :

ـ لم نكن نعرف أن لك سيارة .. متى اشتريتها ؟

فلم أجد بدا من أن أقول :

ـ منذ وقت قريب ...

فصاح « نزهى » وهو يزيد سرعة السير ، فتمرق بنا السيارة مروق السهم :

ـ انها لقطة ... اشتراها من رفيق له معسور ... مفلس !

فقالت السمراء :

ـ مفلس ؟ العياذ بالله ... اللهم حوالينا ولا علينا ... أنا لا أحب المفلسين ، ولا سيرة المفلسين !

فقال « نزهى » :

ـ وأنا أيضا يا آنستى أكره الافلاس وأهل الافلاس .

وهمست « فلة » فى أذنى تسأل :
ـ احقا هذه سيارتك ؟
فأرتج على ، ولم أحر من جواب ، واذا الآنسة « ولعة » تقول :
ـ لا سر بيننا ... يجب أن نتبادل الحديث فى صوت مسموع
فأسرعت « فلة » تقول :
ـ ليس ثمة سر ... كنت أسأل « السمرى » أن يصارحنى أهو صاحب السيارة حقا ؟
فرنت ضحكة « ولعة » وهى تقول :
ـ ليست سيارته .. انها سيارة والدته ... هى التى دفعت الثمن ، وليس من حقه أن يتصرف فى شىء لا يملكه ... لعله خرج بالسيارة دون اذن والدته ... لن تتكرر هذه المرة يا آنستى « فلة » ... خير لك أن تحدى من طموحك يا عزيزتى !
فبهتت « فلة » وعقبت بقولها :
ـ ماذا تعنين يا « ولعة » ؟ أى طموح ؟ لم أقصد من ذلك الى شىء !
فرفع « نزهى » صوته يقول ، وهو يضرب بيده عجلة القيادة :
ـ هدوءا ... ليس هذا وقت مناكفة وتهاتر ...
ثم التفت الى « ولعة » يقول :
ـ لو أن « السمرى » أهدى سيارته تلك الى « فلة » لا قدر الله ، لبادرت بشراء سيارة نقل من أجلك يا «ولعة» ... لاتسعك الا سيارة نقل !

فقالت وقد أخرجت من حلقها نبرات نسوية ساخرة :
ـ سيارة نقل .. ؟ لى أنا .. ؟ اما أفخر سيارة من أحدث طراز واما لا ...
فقالت « سمسمة » وهى تتمصص شفتيها فى تمثيل هزلى :
ـ ياحسرة على ... ليس لى أحد يهدى الى شيئا ، لا سيارة ، ولا عربة كارة ..
فقلت على الفور دون تفكير :
ـ يجب ألا ندع « سمسمة » دون صديق تأنس اليه .. لابد من البحث عنه ...
فصرخت « سمسمة » مهتاجة :
ـ تبحث لى عن صديق ؟ ليكن فى علمك يا حبيبى أنى لو أردت لترامى على الكثير من السادة والكبراء ...
فقال « نزهى » :
ـ صحيح ماتقولين .. ولكن الى أن يحين لك اصطياد هؤلاء الكبراء والسادة ، سأتطوع انا مبادرا اليك ... فهل تقبلين صداقتى يا آنستى المليحة ؟
فتبعته « ولعة » تقول له :
ـ صداقتك أنت ؟ وماذا يكون شأنى معك اذن ؟
ـ لاجديد فى الامر .. سأعد نفسى بينكما معا قاسما مشتركا أعظم ...
وثارت « ولعة » يميد جسمانها المتكتل الضخم ، وحطت على « نزهى » تكيل له اللكمات ، وهى تقول :
ـ خذ نصيبك اذن أيها القاسم المشترك الأنحس !

واختلت عجلة القيادة فى يده ، وسمعنا صوته المخنوق ينشد الغوث ، وشعرنا بالسيارة تترنح ، وكادت تصدمها احدى الاشجار على حاشية الطريق ، فنهضت أنا و «فلة» و «سمسمة» نحول مابين المتنازعين ، ونفض ما بينهما من خلاف

وطفقت السيارة تنهب الطريق ، كأنها تبارى الريح ، وانطلقت أصواتنا بالغناء ، وتطارحنا النكات والأفاكيه ، لنشيع جو الانس والمراح ، وكانت نكاتنا محتشمة متحفظة بادىء بدء ، ثم انقلبت متبذلة فاحشة تنتزع منا الضحكات بلا حساب ، وتحدونا على أن نتغامز ونتقافز ويدغدغ بعضنا بعضا فى جرأة وانطلاق !

وانبرت « ولعة » تقول « لنزهى » :

ــ الى أين انت ماض بنا أيها السائق الغفل ؟

ــ ألا تعرفين يا آنستى ان صاحب السيارة سعادة « السمرى بك » يدعونا الى العشاء فى « مينا هاوس » ؟

فقالت « فلة » :

ــ العشاء فى « مينا هاوس » ؟ .. أخشى أن يرانا أحد

فانتهزت الفرصة أقول :

ــ نستطيع ان نصيب عشاءنا على بساط الرمل فى سكون الليل ، تحت ظلال « الاهرام » ... سأحضر لكم من المقصف ما لذ وطاب !

فقالت « سمسمة » :

ــ أى مقصف ؟ لقد زهدت نفوسنا فى شطائر الفول والفلافل التى تبيعها المقاصف ... لماذا لا نتناول العشاء على موائد « مينا هاوس » ؟

وأجبت أقول فى حرج :
ــ اذا اتفقتم على ذلك فلا مانع عندى ، ولكن الاجمل أن نتم نزهتنا فى طريق الاسكندرية الصحراوى ، قبل ان نتناول العشاء ، فذلك أذكى للشهية ...
وأشرفنا على فندق « مينا هاوس » ، واذا السيارة تقف دفعة واحدة ، وحاول « نزهى » أن يستنهضها ، فلم يفلح ، فقال وهو يقفز منها :
ــ لا جدوى !
ولحقت به أتبين الأمر ، فهمس لى :
ــ نفد الوقود ..
وهمهمت :
ــ ياللكارثة ... ألا من سبيل للحصول على الوقود ؟
ــ نحن كما لا يخفى عليك مفلسان !
ــ والاوانس ؟
وفطنت الفتيات الى أن فى الامر شيئا لايدرينه ، فنزلن عن السيارة ، وأقبلن علينا متسائلات ، وما لبثن أن عرفن جلية الخبر ، فكان وقعه شديدا عليهن ، ونشبت بيننا وبينهن مجادلات لم تخل من حدة ، وخاصة حينما جاهرهن « نزهى » بالحاجة الى معونة عاجلة لشراء مكيال من الوقود واسفرت لنا الحقيقة المرة ، فاذا نحن جميعا من الافلاس على درجة سواء !
وقالت الفتيات :
ــ ماذا نصنع ؟
فأجاب « نزهى » :

ـ نعود مترجلين ... المشى رياضة مطلوبة علينا أن نمارسها فترة بعد فترة ، ليستفيد منها الجسد ، نحن محتاجون اليها ، ولا سيما الآنسة « ولعة » ...

ولم تصادف مداعبته استجابة ، بل لقـــد استقبلتها الفتيات بامتعاض ، وما لبث امتعاضهن أن استحال مهاترة وشتيمة ، كان « لولعة » فيها النصيب الأكبر ...

وفيما نحن نعالج الأمر ، اذ أهاب بنا صوت خشن أن ننقاد له ، فالتفتنا نتعرف الصوت ، فواجهنا شرطى يأمرنا أن نصحبه الى المخفر ، فكدت أصعق من هول ما أسمع ، وفى لمحة أبصرت « شكرى » رفيقى فى « الجامعة » وهو صاحب السيارة نفسه ، فأحسست دوارا يصدع رأسى ، وغمامة تنسدل على عينى

واختلطت على المشاهد والاصوات ، فكأنى فى دوامة من الموج عاتية ، لا أعى ماذا قلت ، ولا أدرى ماذا فعلت ...

ورأيتنى مسوقا مع الجميع الى دار الشرطة ، فأحاطونا بشباك من التساؤل والاستفسار ، وماكان لنا أن نوارب أو نكتم شيئا مما جرى ، فجهرنا بالحقيقة فى خزى وانكسار واختلى الضابط المحقق « بشكرى » فترة قصيرة ، وخرجا الينا معا يتضاحكان ، ثم دنا الضابط منى أنا و « نزهى » يهز كتفينا ويعلن قراره الحاسم :

ـ لقد رضى صاحب السيارة « شكرى بك » أن ينزل عن شكواه ، نظير ترضية هينة يلقاها منكما ..

فقال « نزهى » :

ـ ماذا يرضيه ؟

ـ أن تعودا أدراجكما الى المدينة حافيين ...
فشهقت أنا و « نزهى » نقول :
ـ حافيين ؟ كيف ؟

وتناهت الينا ضحكات نسوية على مقربة ، وماهى الا
تصدى لنا بعض جنود الشرطة ، فانتزعوا من قدمى الحذ
والجورب ، وكذلك صنعوا « بنزهى » ، ثم ألقوا بنا ا
الطريق ، ودار الشرطة تعج بالتضاحك والاستهزاء

وسرنا على الطوار ، أنا و « نزهى » ، نحاول أن نروض
أقدامنا على السير ، دون حذاء يقيها وعثاء الارض الصل
الباردة

وسمعت « نزهى » يبعث من حلقه ضحكة استخفا
وهو يقول :

ـ لم أكن أقدر حق التقدير فضل ولاة الامور فى مكافح
الحفاء ، الا فى هذه الساعة ! .. ما أقسى الحفاء !.. مساك
أولئك الحفاة ، ونحن لاندرى !

ولم يكد « نزهى » يفرغ من قوله ، حتى شاهدنا ع
كثب منا تلك السيارة التى كنا فيها ، تتهادى فى الطري
يقودها صاحبها « شكرى » نفسه ، فأشرعنا اليها نظرات
الشاردة المضطربة ، فلمحنا فى داخلها فتياتنا الثلاث ، وه
يهتززن على المقاعد ، ويرسلن أنظارهن من خلف النوا
ويشاطرن صاحب السيارة ضجة مرحة صاخبة !

— ١٠ —

منتصف يونية سنة ١٩٥٢

ما كان أشقانى بذلك اليوم المشئوم الذى جرى فيه

حادث السيارة على طريق الهرم ... لقد اشتدت من أثره وطأة المرض على ، فاحتبست فى البيت ، وأنا أحسب انى أموف على هلاك محتوم

وأكبر ما أمضنى من ذلك اليوم العصيب شعورى بالهوان من هذه الفعلة الفاضحة ، وهى اشتراكى فى المضى بالسيارة دون اذن من صاحبها أو علم . اضف الى ذلك تلك العقوبة الغريبة الموجعة التى ذقت مرارتها الاليمة ، وهى عودتى الى الدار حافيا أنتعل أديم الأرض على طول الطريق

لقد تسامع بتلك القصة جمع ممن يتصلون بى ، فلاكتها ألسنتهم الطوال ، ونفخوا فيها من روحهم حتى تمخضت عن أشياء لم تكن منها قبل ، واتخذوها نكتة رائعة يتملحون بترددها فى المنادمات والمسامرات

أما أمى فانها اقتضبت الحديث فى شأن هذا الحادث ، ولم تكن قاسية على ، فقد شغلها القيام بتمريضى على النحو المألوف ، لا ترجو الا أن تعاودنى العافية

وتواردت الايام ، وانا اعانى وحدة موحشة ، وقنوطا مريرا ، حتى لقد أضربت عن قراءة الصحف والمجلات ، وزهدت فى الاستماع الى المذياع ، ولبثت فى براثن هـــذا اليأس الساحق ، لا عمل لى الا ان اعد الساعات التى تمر مرتقبا شبح الموت ، واجدا فيه خلاصا هو نعم الخلاص

وكنت كلما دانيت الركن المقدس فى البيت ، ركن المخلفات التى تتضمن ماكان لأبى من مآثر وأمجاد فى خدمة الوطن ، أرانى قد انسللت من الركن انسلال الهارب ، كأنى أتهيب أن تقع عينى منه على شىء

وانقطع « نزهى » عن زيارتى اكثر من أسبوعين ، ثم
وصلنى بعد هذا الانقطاع ، فأحسست الارتياح لمقدمه
والأنس به ، وما أن اطمأن به المجلس ، حتى قال :

ــ لم يكن فى حسبانى أنك مازلت ملازما الفراش ..
ظننتك تختلف الى « الكلية » ..

وجعل ينقل فى الحجرة نظره الشرود ، فقلت له :

ــ اصدقنى ... ماذا أبطأ بك عن زيارتى هذا الوقت
الطويل ؟

فلم يجبنى هنيهة ، ثم قال وهو ينحرف ببصره عنى

ــ وماذا تبغى من زيارتى لك يا « سمرى » ؟ أحس
بأنى أصبحت عنصرا غير صالح ، وما أريد أن أجنى على
غيرى .. فليكن كل فى طريقه !

فقلت له فى اخلاص :

ــ لست أحسن منك حالا .. فانى احس بمثل
ما أحسست !

ــ فلنعترف بأننا فى ضلال ... ولكن كيف السبيل الى
تغيير ما نحن فيه ؟ .. ماذا نعمل ؟ انى غير قادر على
شىء ... لكأنى تائه فى بيداء لا أستبين سبيلى ! .. كلا
تائه يا صديقى ، ولكن يجب ألا نظلم أنفسنا ، فالبلد كله
فى مثل هذا التيه ... الشعب كله يتخبط فى الظلام
والزعماء الذين نعقد بهم الرجاء يرعون مصالحهم الخاصة
على حساب الوطن الحائر ، الشائعات مستفيضة ، والصحف
لا تذكر الحقائق الا لمحا ، فالى أى مصير نحن مسوقون ؟!

وقدمت علينا أمى تحمل صينية القهوة ، فتناول «نزهى»

قدحه ، وشرع يترشفه ، ولاحظت أمى أننا لا نتناقل الحديث فعمدت الى المذياع تدير مفتاحه ، فاذا المذيع يقرأ بيـانا حكوميا ضافيا تعلن فيه الوزارة عزمها على انجازمشروعات جسام تهدف الى رفع مستوى الشعب ، وتؤكد اصرارها على أنها لن تساوم فى حقوق البـلاد ، بل تطالب بهـا كاملة غير منقوصة

فنهض « نزهى » يقول لأمى فى ضراعة :

ـ أستأذنك فى اغلاق المذياع .. كفانا تخديرا ومطاولة !

وما عتم أن أدار المفتاح ، فانقطع الصوت ، وعاد «نزهى» الى مقعده ناكس الرأس ، يرعى قدح القهوة بنظرة كليلة وشملنا صمت يائس كئيب !

— ١١ —

الحادى والعشرون من يونية سنة ١٩٥٢

مازلت أسير الدار ، فى أسوا حال .. الجسم واهن ، والنفس محمومة ، والفكر فى بلبال ... وكان « نزهى » يختلف الى ، ويطيل الجلوس معى ، ويفضى الى بما يروج له من الانباء والاحداث :

هنالك أزمات وزارية متلاحقة ، والساسةالذين يتعاورون الحكم متدابرون يكيد بعضهم لبعض ، ويشغب بعضهم على بعض ، ثمة فضائح شنيعة ، ورشوات جسيمة ، تتناقلها الالسن ، وترمى بها الرءوس والاقطاب ، لقد أصبحت اداة الحكم ناخرة يعيث فيها السوس ، وليس بمجد فى اصلاحها علاج .. ثمة زعماء غير راضين عن هذا السوء ، يؤلمهم أن

يشقى به الوطن وأهله ، ولكنهم فى صمتهم ساهون ،عزائمهم
خوارة ، وسواعدهم هشة ، فلا أمل فى أن يكون منهم قادة
يستنقذون سفينة الحكم من ملتطم الامواج . لكأن تثاؤبة
عريضة تدور على الافواه ، يصحبها التمطى والاغفاء ، فاذا
استيقظت العيون على وقع الاحداث ، لم يكن ذلك الا ريثما
يهدأ الوقع ، ويسكن الصدى ، ثم يعود التثاؤب يملأ الأفواه
والاغفاء يغشى العيون !

وأجدنى أقول لصاحبى « نزهى » :

ــ أما لهذا الليل من آخر ؟

فيسرح بصره فى الفضاء ، ولا يحير من جواب

وأخبرنى « نزهى » بأنه قصد الى قرية « الهماميل »
ولقى هناك فى القهوة الحاج « سويفى » وغلامه « فلافل »
فشكا له كلاهما ما يعانيان من ضنك وقلق ، لا يخصهما
وحدهما ، وانما يعم أهل القرية . وأنهما سألا فقيه المسجد
الشيخ « عمران » فى هذا الخطب ، فأجابهما بأن هذه محنة
يمتحن الله بها عباده العصاة ، ليذكروه وينيبوا اليه ، عسى
أن يمن عليهم بعفو منه ورضوان ...

واسترسل « نزهى » يعبث بالقلم فى يده ، ثم استأنف
حديثه يقول :

ــ نسيت أن أفضى اليك بنبـأ يهمك .. ان رفيقك
« شكرى » صاحب السيارة المعهودة ، قد حل محلنا فى
مصادقة الفتيات الثلاث ، فقد رأيتهن معه غير مرة ، انهم
الآن ستة ، ثلاثة شبان لثلاث آنسات !

فعاجلته أسأله :

ـ و « فلة » ؟

ـ لقد اختص بها « شكرى » .. أما البدينة « ولعة » فقد اختير لها صبى قمىء ، على هيئة « أبى فصادة » ، وأما السمراء « سمسمة » فقد انتهت الى اصطياد شاب عليه سمات أهل الريف .. هذه الرفقة الطريفة تجوب الشوارع ، وترتاد الاندية والمطاعم والمساهر ... شاهدتها فى « ملهى نفرتيتى » ، ولمحت « فلة » تراقص « شكرى » فى دلال مفضوح ، لقد جاوزت طور التمرين ، واصبحت الآن مدربة تتقن فن التماجن والملاعبة !

فغمغمت فى ألم :

ـ الخائنة ... النذلة !

فأجابنى وهو يلوح بيده :

ـ لا خيانة فى الامر ولا نذالة ... لقد طالما كنت تردد كلمات الكرامة والشرف والنبل أكثر مما ينبغى .. ضيقت على نفسك يا عزيزى فى غير طائل ! ... ألا تعترف الآن بأنك كنت مغاليا فى احساساتك الرفيعة يا سيد «سمرى» ؟

فخفضت رأسى ، لا أدرى بماذا أجيب ...

— ١٢ —

السابع والعشرون من يونية ١٩٥٢

قضيت الاسبوع الفائت كما كنت من قبل ، سليب القوى طريح الفراش ، تدور بى أحلام اليقظة كل مدار ...

ولكنى اليوم خير منى بالامس

زارنى صاحبى « نزهى » ، وجلس الى ساعة ، ومنذ

فارقنى وأنا مهتاج الخاطر ، لا يهدأ لى بال ...

لقد أقبل على ، وأخذ يتلفت حوله ، ثم تدانى من
يهمس :

ـ وردتنى رسالة من صديقنا « عبد الحكيم » ، وكا
وصولها الى من طريق سرى ...

فانتفضت فى فراشى ، وحدقت اليه أقول :

ـ أين الرسالة ؟

ـ أكان يقع فى خلدك أنى أحتفظ بها فى جيبى ، حت
أطلعك عليها ؟ ما ان قرأتها حتى مزقتها كل ممزق ، ث
ألقيتها طعمة للنار !

واقتعد كرسيا بجوارى ، وأنشأ يقول :

سأذكر لك ما احتوته الرسالة ... ان « عبد الحكيم
يصف حياته فى المعتقل ، فهو واخوانه هنالك كأنهم فى جحي
من الضيق والقلق والاختناق ، انهم لا يشكون ف
الاعتقال شيئا من التعذيب والتنكيل ، فأكثر الحراس عليه
يشركونهم فى الميول والآراء ، ويضمرون لهم العطف والمسالم
وقد أكد لى أن الجو تتناثر فيه الارهاصات بأن ثمة أحدا
وشيكة الوقوع ، فالاختلال فى البلد بالغ أقصاه ، وليس
لمثل هذه الحال من دوام ... ان « عبد الحكيم » يهيب ب
أن نشحذ الهمم ، ونشد العزائم ، وننير أفكار الناس ، حتى
يكونوا من قابل أمرهم على أهبة ، وقد أوصانا بأن نحرص
على الكتمان ، وأن نكون على حذر من الرقباء والوشاة ..
وفى ختام رسالته يكرر أن مطلع الفجر منا قريب

ـ ماذا يقصد على وجه التحقيق ؟

ـ لست أدرى .. ولكن رسالته تختلج فيها روح التفاؤل بالغد ، والايمان بالمستقبل ، والثقة بأننا مقبلون من أمرنا على جديد ...

ـ وماذا تنتوى أن تفعل ؟

فعدل بوجهه الى النافذة ، وقال :

ـ لم أطمئن الى خطة بعد ... سأستشير فيما أفعل

ـ ومن تستشير ؟

ـ رفاق « عبد الحكيم » وأعوانه ...

ـ لاتنس المحاذرة ...

ـ سأحاذر ما استطعت ...

وتحلحل عن الكرسى يخترق الحجرة ، فى جيئة وذهوب ثم وقف عندى يقول :

ـ لابد أن نتخذ لنا فى الحياة طريقا غير الذى كنا نسلك ... حسبنا ما أفرطنا فيه من اعوجاج معيب

ـ وماذا نستطيع أن نصنع ؟

ـ اذا عجزنا عن أن نصنع شيئا ، فلا أقل من أن ننتظر فى يقظة ، وأن نرقب ما يكون على أهبة ...

ونظر فى ساعة يده ، ثم قال :

ـ انى على موعد مع صديق ، وقد حان الموعد ، أودعك وسأمر بك ...

وشد على يدى ، باسم المحيا

أطلقت العنان لأفكارى ، فيما نقل الى « نزهى » من رسالة صاحبنا « عبد الحكيم » ، وفيما عقب به على هذه الرسالة ... وسرعان ما رأيتنى أنهض ، وأقصد الى

والدتى ، وأطلب اليها أن توافينى بطعام ... فانى شعرت الآن - بعد أن لم أكن أشعر منذ وقت طويل - بفرط الرغبة فى أن آكل ، لقد ثارت شهيتى ، ولقد عجبت لذلك من نفسى ، وتهللت أمى لهذه الرغبة ، اذ كان مما يحزنها ويطيل همها أنى مصدود النفس عن الطعام ، ونشطت تجهز لى حساء الدجاج ، وما أن أحضرته لى حتى أقبلت عليه فى شغف ، فلما فرغت - او على الاصح : امتلأت - طلبت الى أمى أن تناولنى الدواء المقوى ، فجرعت منه جرعة وافية ، وأمى فى دهشة مما أفعل ، ثم قلت لها وأنا ملتمع العينين :

- أرغب فى أن أعاود أخذ الحقن التى أوصى بها الطبيب الا تستدعين الممرضة لتبدأ ...

فشاعت على وجه أمى بسمة ارتياح وقالت :

- سأقصد اليها على الفور ....

وانصرفت عنى تتزيا للخروج ، فاتجهت أنا الى ركن الذكريات المقدس ، ذلك الركن الذى يزخر بأمجاد أبى فى الدعوة الى النهوض بالوطن ، والجهاد فى سبيل حريته وكرامته ... بى حنين الى الانس بهذه الذكريات الغالية .. شدما أنا شيق الى أن أتحدث الى أبى ، أن أستلهمه النصح والتوجيه ، أن يفتينى فى أمرى : كيف أستبين سبيلى ؟!

— ١٣ —

العاشر من يولية سنة ١٩٥٢

أنا حتى الساعة حليف الدار لا أبرح ... ولكن شتان

بين يومى وأمسى ، شتان بين مريض يصدف عن طعامه ودوائه ، ومريض يعنى بالطعام والدواء ما استطاع ...
لقد تبدلت حالى ، وراجعتنى العافية بقدر ملحوظ

زارنى صديقى « نزهى » غير مرة ، وقضينا أويقات فى ركن الذكريات ، نتصفح مقالات أبى ، ونتملى صوره ، ونناقش فيما كان له من بلاء حسن فى سبيل الوطن

على أن « نزهى » لم يكن يطيل الجلوس معى ، وكنت أجده سريع الوجوم والاكتئاب ، كأنما يبرح به هم ، وتنوشه حيرة ، فاذا سألته :

ـ ماذا انتوى من عمل ؟

أجاب فى اقتضاب :

ـ لم أقرر أمرا بعد ...

ـ بودى أن أعينك ، وسترانى لك خير معوان

ـ حقا يا « سمرى » ، لا غنية لى عنك ، ولكن لكل شىء أوان ... لم يحن الوقت بعد

ـ ومتى يحين ؟

فحدق الى ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة اشفاق :

ـ عندما تستكمل صحتك ...

فأمسكت بيده ، أحملق فيه وأقول :

ـ اتخفى عنى دخيلة امرك ؟

ـ ليس هناك من شىء أخفيه !

ـ انت تحسب انى هالك ، ولذلك لا تعول على فى امرك ولا تفضى الى بذات نفسك

فواجهنى يقول فى جد وعزم :

ـ لست هالكا يا صديقى ... فدع عنك الوساوس

والاوهام ... أتمم علاجك ، وستحين ساعة العمل الحاسم وليكونن لك فيه نصيب !

- ١٤ -

السابع عشر من يولية سنة ١٩٥٢

انصرم الاسبوع كله ، دون أن يزورنى « نزهى » ، واليوم جاءتنى أمى تنهى الى نبأ القبض عليه ، فأظلمت الدنيا فى عينى ، وكدت يغشى على ، وريعت أمى ، وبذلت جهدها فى العناية بى ، وسمعتها تهينم :

— لم أكن أقدر أن يكون هذا وقع الخبر عليك ، ليتنى كتمته عنك ...

فقلت وأنا أدنى قارورة العطر المنعش منى ، أتشمم :

— لقد أحسنت بى صنعا اذ أخبرتنى ... لا بد أن تفضى الى بكل شيء !

— ولكن صحتك يا « سمرى » لا تقوى على الصدمات كما ترى

فقلت متهدج الصوت ، حسير النفس :

— صحتى ؟ وأية قيمة لصحتى ؟ لم يبق لى بحياتى اهتمام ...

— حسبك أن حياتك تهمنى ... من أجلى يجب أن يتم شفاؤك ... من أجلى يجب أن تعيش ... أنت كنزى فى دنياى ... أنت أملى المنشود

ورنت الى تكاد بنظراتها تلتهمنى ، وهى تدانى بين وجهها ووجهى ، وتقول :

ـ عدنى ألا تهتم الا بصحتك ... لا شأن لك بأحد ... فلتجانب مواطن الخطر ... أخشى أن يقصوك عنى ... اخشى أن يلقوا بك فى المعتقلات والمحابس ... صحتك لا تحتمل مكاره الحبس والاعتقال ... انج بنفسك يا بنى !

فقلت لها فى هدوء :

ـ وهل تروقك حياتى على هذا الوضع الذليل ؟

فانحنت على تعانقنى وتضمنى ، وقلبها يرجف ، وأوصالها ترعد ، والقلق آخذ منها كل مأخذ ، كأنما تحمينى أن ينتزعنى منها أحد .. وأسرعت الكلمات على شفتيها تقول :

ـ تروقنى حياتك على أى وضع تكون ... أريد أن تظل أبدا بجانبى لا تفترق عنى ... أريد أن أراك أمامى سليما معافى ، تروح وتغدو فى قوة ... لا تهتم الا بصحتك ، لا تشغل نفسك بشىء ... عش لأمك يا بنى ... كن لى يا « سمرى » ...

وجعلت تغمر وجهى بقبلاتها الملتهفة ، ودمعى يمازج دمها السخين ...

ـ ١٥ ـ

التاسع عشر من يولية سنة ١٩٥٢

يومان عصيبان مضيا ، لم أذق فيهما طعم السكينة والقرار ... نفسى تحاصرها هموم كأنها رءوس حراب ... انى فى غمرات يأس لم تبلغ بى من قبل ما بلغت بى اليوم وكلما اشتدت على وطأة الضيق ، قصدت الى أمى ألوذ بها وأحتمى ، وأرانى قد ألقيت برأسى على صـــدرها أبكى

وأبكى ، وهى تلاطفنى وتحنو على ، حتى تسرى عنى ..
تناهت الى قصة القبض على صديقى « نزهى » بالتفصيل ... لقد دهمته الشرطة فى قرية « الهماميل » وهو فى القهوة جالس ، مع زمرة من الشبان ، يأتمرون بالسلطات ، ويكيدون لها أشد الكيد ، فسيقوا جميعا الى المحبس ، ومعهم الحاج « سويفى » صاحب القهوة ، وغلامه « فلافل » اذ كانا مشتركين فى الكيد والائتمار ...
وجعلت أناجى نفسى :
ــ حتى أنت يا « فلافل » ؟!
وذكرته يوم ضمتنا قرية «الهماميل» فى قهوة«السويفى» حين انبعث « عبد الحكيم » يتحدث عن « الاهداف » ، فقد كان « فلافل » أول من أفصح عن هدفه فى سذاجة مخلصة ... وقال :
ــ أريد أن أكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين !
وسنحت على فمى ابتسامة هزيلة ، وانسابت من صدرى تنهدة خاشعة ...
ثم نهضت الى النافذة ، وأشعت بصرى فى الدور التى تتزاحم حيالى ، وتسد الافق العريض دونى ، ورأسى تتناوح فيه الخواطر ...
لم أبلغ فى الوطنية مبلغ أحد ، حتى غلام القهوة«فلافل»! انه أصدق منى وطنية ، وأشد حماسة ، وأحسن عملا .. هو الآن فى عداد المجاهدين ، مع « عبد الحكيم » و « نزهى » وأضرابهما ممن تحفل بهم المحابس والمعتقلات ... انه يحيا بينهم ، يقاسمهم حياة الشظف والعذاب فى سبيل

« الاهداف » ... أما أنا ... أنا « يسرى السمرى » ابن « مجاهد السمرى » زعيم الوطنية الطيب الذكر ، الخالد الأثر ، فمازلت قعيدا فى مكانى ، أحيا فى دار منزوية ، وأتقلب على فراش وثير ، وأطعم حساء الدجاج فى طمأنينة وخمول !

وأدبرت عن النافذة ، أخطو فى الحجرة ، خافض الرأس ، وأنا أستمع الى هاجس فى نفسى :

ـ ولكن أمك تبغى أن تعنى بصحتك ... وألا يكون لك شغل بشىء ... تريد أن تعيش من أجلها ، وكفى ...

وانطلقت من فمى ضحكة بشعة ، تجاوبت فى أرجاء الحجرة أصداؤها ، كأنها تسخر مما أنا فيه من خيبة واخفاق !

- ١٦ -

الثالث والعشرون من يولية سنة ١٩٥٢

أيقظتنى من نومى فى الصباح صيحات مجلجلة يبعثها المذياع ، وفتحت عينى ، فاذا أمى بجانبه تسمع ، فنهضت اليها أسأل :

ـ ماذا ؟

فأجابتنى :

ـ اصغ لما يذاع ... نبأ خطير ... بيان من قيادة القوات المسلحة ...

وجعلت أقترب من المذياع ، حتى كدت ألصق أذنى به ، ولبثت أنتظر ، حتى اعيدت اذاعة البيان ، فعرفت منه

أن طائفة من رجال الجيش الاحرار قد ضاقوا ذرعا بمـ
يتفشى من فساد الاوضاع ، وأنهم قد هبوا لاستنقاذ الوط
مما يتهدده من انحلال

وبادلت أمى النظرات ، ولســانى تعقده الدهشــة
ثم ألفيتنى بغتة أقفز فى اهتياج ، وأطوق عنق أمى بذراعى
وأغمرها بالقبلات ، وأتصايح :

ــ لقد ثار الجيش ... لقد حدث الانقلاب !

والتقمت فطورى على عجل ، ثم ارتديت حلة الخروج
وأنا أشعر نحوها شعور طفل يرتدى ثوبه الجديد فى يو
عيد . فقد بعد عهدى بارتداء الحلة ، اذ طالت صحبتى
للمنامة ، وأنا ملازم الفراش ، وفوجئت أمى بى ، وأنا
متهيىء لمبارحة الدار ، فقالت :

ــ ما هذا يا « سمرى » ؟

فقلت فى غير مبالاة :

ــ سأغيب بعض وقت ...

ــ الى أين تقصد ؟

فابتسمت ، وجهرت بصوتى :

ــ الى أين ؟ الى الدنيا العريضة ، أشهد ما يدور من
أحداث ...

ــ انك لم تستكمل صحتك بعد ...

ــ صحتى موفورة ... انى أحس بقوة جامحة !

ــ ربما كانت فى الطريق مظاهرات ...

فقاطعتها أقول :

ــ لا تخشى على بأسا ... سأكون حذرا ...

وتركت الدار مهرول الخطا ، ومضيت أجوب الشوارع ، فى تطلع مشبوب ...

كانت المدينة على حالها المألوف ، ليس فيها من جديد الا دبابات تجوز ببعض المسالك ، وسيارات تغص بالجنود متنقلة هنا وهنالك ، وزمر من رجال الجيش والشرطة يشرفون على الامن وضبط النظام ...

وكان النـــاس يتصفح بعضهم وجوه بعض ، منهم واجمون يتلقون ما سمعوا فى خشية وتهيب ، ومنهم متسائلون يبغون مزيدا من التعرف والاستفسار ، ومنهم من يتحدثون عن الانقلاب فى تحمس ، مطنبين فى التعليق والتكهن بما يكون

وقفلت الى الدار ، أشد فضولا مما كنت ، مترقبا من الأخبار ما يشفى الغليل

وجلست الى المذياع ، آنسا به ، وبجوارى أمى ، نصغى الى أنباء حركة الجيش ، وكلانا فى شغف بها أى شغف !

- ١٧ -

الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٥٢

الاحداث الجسام تتلاحق ... ثمة نظم ســـياسية ، وأوضاع اجتماعية ، تنهار ، ليقوم على أنقاضها جديد من النظم والاوضاع . ونحن لا نفتأ نتلقى أنباء هذه الاحداث فى اهتياج وابتهاج

لقد انجاب عن الوجوه ما كان يعروها من دهش ووجوم

تلك هى الحقائق تتجلى ، والاسرار تنكشف ، فلم يعد يرتاب فى جوهرها أحد ...

المواطنون تشيع بين جنوبهم حمية ، وهم يتنافسون فى الحفاوة بالقادة من رجال الجيش ، ويلتمسون السبيل الى لقائهم واجتلائهم شاخصين اليهم بمجامع العيون ، يزحمون عليهم كل طريق ، ويصفقون لهم فى كل مكان ، وتشدو ألسنتهم بأسمائهم صباح مساء !

ان الجمهور على يقين بأن مقاليد الوطن قد ألقيت الى صفوة من أبنائه منقذين أبطال ، وحماة أمناء

أولئك هم الناس يتناقلون الاحاديث فى برامج التجديد والاصلاح والتعمير ، تلك البرامج التى يستقبلها الوطن من أقصاه الى أقصاه فى كل مرفق من مرافق السياسة والاقتصاد والاجتماع

لقد استدبرت « مصر » عهدا من الحيرة ، كانت فيه تتخبط فى ظلام دامس ، وها هى ذى تتلقى سواطع الاضواء فى أمل واستبشار ...

وبينما كنت اليوم عن كثب من المذياع ، أستمع الى حديث فى أهداف ثورة الجيش ، غلبت على سمعى فى الدار أصوات تتعالى ، وخفق أقدام تتدانى ، وما كدت ألتفت لأتبين الامر ، حتى وقع بصرى على جمع مقبلين على ، واذا أنا أصيح ، وقلبى يتواثب :

— « نزهى » ، « عبد الحكيم » ، « السويفى » ، « فلافل »

وهرعت اليهم أحتضنهم وأقبلهم فى ارتباك ، وعيناى يتلألأ فيهما دمع السرور

وغمرتنا موجة من الحفاوة ، بعض وقت ، ثم ألفينا أنفسنا نتحلق حول « عبد الحكيم » ، نصغى الى حديثه عن المعتقل ، كيف زج فيه ، وكيف كان يمضى هناك أيامه ، وكيف كان على اتصال بأهله ورفاقه ، يراسلهم ويراسلونه ، على الرغم من الرقابة المضروبة ، والتحفظ الشديد ...
وختم « عبد الحكيم » حديثه يقول فى توكيد وحيوية ، والبريق من عينيه يشع :
ـ كان من المحال أن تمتد بنا تلك الحال ... لقد كان الاختلال والفساد على أسوأ ما يكون اختلال وفساد ... كل وضع يجانب طبائع الاشياء مقضى عليه بأن يبيد ...
وقبل أن ينفرط عقد الاجتماع ، وقف « عبد الحكيم » يتوسطنا بقوامه الفارع ، وجعل يتوسمنا فى صمت ، وآنسنا فى نظراته وقدة لم نعهدها فيه من قبل ، فتعلقت به عيوننا نرقب حركاته وسكناته ، واذا هو يتكلم جهير الصوت ، وطيد النبرات :
ـ تذكرون أنى تحدثت اليكم منذ أشهر عن « الاهداف » واليوم استبان لكل منكم هدفه ، وليس علينا الا أن نرسم الخطة ، ونبدأ التنفيذ ... العهد الجديد يتطلب انشاء منظمات تيسر لكل مواطن صالح أن يبلغ هدفه فى سبيل تقويم نفسه ، ونفع وطنه
وسكت « عبد الحكيم » هنيهة ، يركز بصره فى ، وقال :
ـ ما رأيك يا « سمرى » فى أن تسند اليك منظمة الناشئين الأحرار ؟ ستكون لك شعبة خاصة من الفتيان يتلقون عنك التوجيه والارشاد ... سيكون لك ناد ومكتبة وميدان

للتدريب الرياضى والعسكرى ، ومن حقك أن تصدر النشرات ... سيكون تحت امرتك ـ أو على الأصح : تحت رياستك ـ فئة من الامة ، يوكل اليك اعدادها للوطن خير اعداد . ليس وراء هذا مطمع لك لتحقيق هدفك فى الزعامة الوطنية ، ذلك المأرب الذى طالما ابتغيته لنفسك على غير هدى

وكنت أستمع الى قوله ، ودقات قلبى تهز ضلوعى ، فما ان أتم كلامه ، حتى تراميت عليه أحتضنه وأقبله

والتفت « عبد الحكيم » الى « فلافل » يأخذ بكتفه ويقول :

ـ لم أنس أنك ترمى الى هدف عظيم ... ان تكون سكرتيرا لنقابة الصحفيين ... لكى تنال ذلك يجب أن تعمل بادئا مع « سمرى » ... كن سكرتيرا له ... سكرتيرا لشعبة الفتيان الأحرار ... سنرسم لك خطة لتعليمك وتثقيفك ، وستستوفى حظك من التدريب الرياضى والعسكرى حتى اذا دعا داعى الوطن لبيت وأنت فى أهبة

فرفع « فلافل » رأسه ، وفى نظراته زهو ، وعلى فمه ابتسام ، وطفق يردد :

ـ سكرتير شعبة الفتيان الاحرار ؟.. عظيم ... عظيم ...

ووجه « عبد الحكيم » قوله الى « نزهى » :

ـ تكلم أنت عن نفسك ...

فانبرى « نزهى » يقول وهو يرفرف بذراعيه :

ـ لقد شرعت أعيد رسم اللوح الفنى الذى ابتدعته ،

لوح « المدفع » ، وسأعرضه فى « روما » فى أول فرصة تلوح ...

وخطا « الحاج سويفى » خطوة ، وهو ينحى على شاربه يفتله :

ـ وانا ما هدفى ؟

فصاح « عبد الحكيم » :

ـ ألم تعرف هدفك بعد ؟ ألم نتحدث فى المعتقل معا عن معسكر التدريب ؟

ـ معسكر التدريب ؟

ـ نعم ... سأعمل انا فى هذا المعسكر على تخريج الفدائيين ، وسأتولى تدريبك ... ستكون فدائيا يا سيد « سويفى » ...

فقال فى دهشة وعجب :

ـ فدائى ؟ فدائى ؟!

ـ سأكلفك الخروج الى مستودع من مستودعات الاحتلال فى القناة ، مستودع للذخيرة والعتاد ، فتلقى عليه قنبلة تدعه هشيما تذروه الرياح ... عمل جليل يكسبك المجد الفريد ... وانت اهل له بماضيك الوطنى فى الثورة المصرية الاولى يا حامل علم الثورة !

ـ اقوم بمهمتى هذه ، واعود اليكم منصورا اتقلداوسمة الفخار ...

فتنحنح « عبد الحكيم » وهو يربت كتف « السويفى » وقال :

ـ أمصر أنت على أن تعود بنفسك ، كما أنت ؟!

ـ ولم لا ؟
ـ تعود الينا محمولا على الاعناق ...
فتطاول « السويفى » برأسه ، وهو يردد فى اعتزاز :
ـ نعم ... أعود محمولا على الاعناق !
فتضاحكنا من قوله ، فأخذ ينقل بصره فينا يتعجب
فصاح « نزهى » :
ـ سنحملك على ألاعناق ... فى جنازة مهيبة !
فقلت على الفور :
ـ الفدائى مصيره الموت الزؤام ، ولكنه موت أسمى من الحياة ... انه الخلود !
فقال « فلافل » وهو يحملق فى وجه « الحاج سويفى » :
ـ هنيئا لك هذا الخلود !
ومكث الرجل مليا شارد النظر ، ثم أخذ يصلح من شأن شاربه الذى اسرع اليه التهدل ، وهو يقول « لعبدالحكيم » :
ـ تريد أن تقول أنه لا أمل البتة فى النجاة ؟
ـ ثمة امل ، ولكنه امل ضعيف ...
فانبعث « السويفى » يفرك يديه ، وقد حاد ببصره الى ناحية من الحجرة ، وخاطب « عبد الحكيم » بقوله :
ـ أنت تعرف أنى عائل أسرة ، ولى أولاد صغار ، ألا تجد لى عملا آخر غير هذا العمل ؟ لقد كنت فى ثورة سنة ١٩١٩ احمل العلم ، اتقدم به المظاهرات ، وانادى بحياة الوطن عالى الصوت،ولم يكن أحد يستطيع الصبر على حمل العلم كما اصبر ...
ـ اعلم يا حاج « سويفى » انه قد انقضى عهد الهتافات

والتظاهر بالاعلام ، وبدأ عهد الجهاد الحق ، عار عليك يا رجل ان تخشى الموت ... « الحاج سويفى » الذى اراه امامى فى طوله وعرضه يفزع من الاخطار ؟ لم اكن اظن ان الجبن يتسرب الى نفسك على هذا النحو ...

فرأينا الرجل تزهر عيناه ، وهو يقول فى تلعثم :

ـ من قال لك انى اهاب الموت ، او اخشى الخطر ... كل ما قلته انى اريد ان ارجع من مهمتى كما ذهبت وانا حى ... ستجدنى أحمل القنبلة ، وأنسف بها مستودع الذخيرة والعتاد فى منطقة الاحتلال ، ثم اعود كالجنى لم يمسسنى سوء ...

ـ حسن جدا يا حاج « سويفى » ... هذا املنا فيك !

وألقى « عبد الحكيم » علينا نظرة جامعة ، وهو يقول :

ـ لقد عرف كل منا الهدف الذى يسعى الى تحقيقه ، واننا لا نبغى بهذه الاهداف النبيلة الا مصلحة الوطن ... فليعمل كل منا فى سبيله ... والله معنا !

- ١٨ -

السادس عشر من اغسطس سنة ١٩٥٢

انتبهت من نومى صبيحة اليوم ، وانا استشعر فى أوصالى دبيب القوة والنشطة على نحو لا عهد لى به ، وقد أمضيت ليلى كله مستغرقا فى نوم هانىء لم اذق طعمه منذ زمن مديد ... وكان رأسى يعج بالخواطر ، تدور حول الاحاديث التى اثارها « عبد الحكيم » ورفاقه فى زورتهم لى امس ...

وأصبت فطورى ، ذكى الشهية ، ثم ارتديت حلة الخروج ، فتصدت لى امى تقول :

– فيم خروجك يا بنى ؟ الم تكن ملازما سريرك منذ أيام ؟

فانبريت أقول :

– لزمت فراشى ، لأنى كنت مريضا لاقبل لى بالنهوض ، فأما اليوم فأنا شخص آخر ، وافر الصحة والفتوة ... أتبغين أن تتثبتى مما أقول ؟

وكشفت لها عن ذراعى ، وقلت لها اتحدى :

– انظرى الى هذه العضلات البارزة والعروق المشدودة اليست عضدى تشبه عضد مصارع غلاب ؟

وجعلت أثنى ذراعى وابسطها فى فورة ، ودنوت من امى اقبلها واقول :

– سأعمل فى شعبة الفتيان الاحرار ... سأكون رئيس الشعبة .. . قائدها الاعلى ... اعمل على اعداد جيل جديد يدرك تبعاته نحو الوطن ... لأكونن زعيما وطنيا كما كان ابى ... جديرا بأن تفخرى بى ..

وطال بيننا عناق !

العصفورة

الابوة المفجوعة تعمل بواعيتها على أن تخدع نفسها عن حقيقة الموت ، متعلقة بالوهم ، تعيش معه، وتعيش به ، وتجد فى ذلك راحة البال ...

تواردت الاعوام على « المعلم يونس » وزوجه « شلبية » وهما يرتقبـــان الولد ، فلم يمن عليهما الزمن به ، حتى أمست حياتهما خواء ، لا بهجة فيها ولا رواء ، يرين عليهما وحشة وملال

ولكن « القدر » لا يدين بمبدأ البقاء على حال ، والركون الى وتيرة واحدة ، أبغض شىء اليه أن يرى « الحياة » على نمط متكرر لا يتغير ..

انه ليبتغى الجدة على أية صورة تكون ، من خير أو شر ، ومن نفع أو ضر ، ومن تقدم الى الامام أو رجوع الى الوراء حسبه الخروج عن مألوف الاوضاع ، لكى يثير فى أعماق النفوس كوامن الاهتياج

ومن ثم طالعنا « القدر » يوما بحدث كان له أعظم الوقع فى حياة تلك الاسرة الخاملة ...

لقد رزق الزوجان طفلة !

وسرعان ما شهت فى الدار يقظة عارمة ، وأشرق فيها نور ساطع ، وجلجلت فيها ضجة وعجيج

أصبحت الطفلة ـ منذ ولدت ـ قرة عين الوالدين ، فهما يغدقان عليها فيض رعاية وحنان

وكان شأن الاب مع طفلته عجبا من العجب ، اذ باتت شغله الشاغل فى يومه أجمع ...

لم يعد يأنس الى بهجة القهوة ، وسمر الرفاق ، ولغو
المذياع ...

لا يكاد يفرغ من عمله حتى يفزع الى داره يعتصم بهـ
أى اعتصام ، واذا هو يخلو الى الطفلة ، ويغدو معها طفلا
من طراز طريف ... شيخ شارف السبعين ، يتهدل على
جوانب فمه شارب ناصع البياض ، تراه يحبو على الارض
حبو الرضيع ، دالفا بين الأرائك والكراسى يلتمس له فيها
مخبأ يواريه ، ولا يلبث أن يبعث من حلقه صيحة الفزع
والرعب ، اذ تهتدى الصغيرة الى مخبئه ، فتنقض عليه ،
آخذة بخناقه ، وما هى الا أن تدير حول عنقه حبلا تسوقه
منه كما تساق المطية الذلول ، فينقاد الشيخ فى خضوع ،
وتكركر الصبية بضحكاتها الرنانة الصافية ، وهى ممراح
طروب ، يزهوها الغلب والانتصار

وعلى هذا النحو تتوالى المعابثات ، ويسود الهيـاج ،
فينطلق « الطفلان » يعيثان فى البيت فسادا ، يقلبان أثاثه
رأسا على عقب ، ويتعالى منهما الصياح ، ويشتد بهما
الركض ، وهما يتدافعان ويتقافزان ، فاذا البيت قد انقلب
ساحة من ساحات الملاعب ، تلك التى يجول فيها ويصول
ذلك النفر من المهرجين والبهاليل

وكان هذا الصنيع يثير حنق « الأم » فتبدو صاخبة
تنذر وتتوعد ، فتهـدأ العـاصفة على الاثر ، ولا يسمع
الا تهامس خافت ، وتضاحك حبيس !

على ان « شيخ السبعين » أو بالاحرى « طفل السبعين »
طالما حظى مع صغيرته بساعات سكينة وقرار ، لا استخفاء

فيها ولا انقضاض ، هى ساعات السمر العذب يقضيها الأب مع ابنته منتشيا بحديث أنيس ..

تراه يجلسها قبالته على ركبتيه ، ويلف ذراعيها حول رقبته ، ويدنيها الى صدره ، حتى لكأن قلبيهما يتجاوبان بالخفوق . وانه ليقارب بين وجهها ووجهه ، حتى ليتلاقى الخدان وتتواصل الانفاس

لقد اعتصرت سعادة الدنيا كلها فى تلك الجلسة الرخية الحالمة التى يصغى فيها الأب الى صغيرته وهى تقص عليه صورا مما مر بها فى يومها الحاضر ... فهو يصغى ولا يزال يصغى ، مستعذبا رنيم صوتها الموسيقى الخلاب

لم يكن يعنيه مما تقصه عليه من أخبارها الا ذلك الجرس والنغم ... فكأنه يستمع الى « عصفورة » تسقسق له فى نبرات حلوة صافية

عصفورة ؟ أى والله عصفورة !

أليست صغيرته شبيه هذا الطائر الرشيق الجميل ؟

انها عصفورة فى خفة وثباتها على الأرض ، كأنما لها أجنحة تهفو بها فى الهواء ، عصفورة فى رشاقة قدها الضئيل الغض ، عصفورة فى شمائلها اللطاف وهى تهز رأسها الدقيق يمنة ويسرة ، رامية بنظراتها اليقظة الألاقة هنا وهناك . عصفورة فى لحن حديثها الأغن ، لحن البلابل حين تتناجى على الغصون فى الليلة القمراء !

انها عصفورة فى كل شىء مما لها من خصائص وسمات ، حتى أن الأب لم يعد يذكر لها اسما الا اسم « عصفورة » يجريه على لسانه كلما ناداها وناجاها :

تعالى الى أحضانى يا « عصفورة » ... اسمعى منى حكاية يا « عصفورة » ... قبلينى يا «عصفورة» .. أبوك يحبك يا «عصفورة»... كيف قضيت يومك يا«عصفورة»؟

وكان أول ما تلفظه الطفلة من قول ، وهى ترحب بأبيها فى أوبته الى البيت حين تهرع اليـه باسطة ذراعيها فى تشوف ، أن تسأله :

ـ ماذا احضرت اليوم معك لعصفورة ؟

فيخرج لها قرطاسا من حلوى ، أو لفيفة تنطوى على لعبة ملونة ، أو حلية من معدن براق

فتجتذب « العصفورة » هديتها على تشوق واهتياج ، وهى تتصايح وتتواثب فى خفة ذلك الطير الرشيق !

وفى يوم من أيام « الجمعة » ترك الأب المسجد بعد أن أدى الصلاة ، وساقته قدماه فى طريق غير الذى ألف ان يعود منه ، فاخترق دربا لم يكن له به عهد ... وصادفه بائع فطير يعرض بضاعته على صينية رحيبة ، تقوم على محمل من جريد ، ينتحى بها جانب الدرب المسلوك ... واجتذب ناظره مرأى الفطائر وهى تلتمع فى شرابها المتسايل متألقة فى وهج الشمس ، فألفى خطاه تحيد نحوها ، وأحس بأنفه يتشمم عبير الشراب الذكى ، وخطرت « عصفورة » بباله على الفور ، فهذا الفطير خير ما يقدم لها فى « يوم الجمعة » المبارك . وعجل الرجل الى البائع يشترى منـه فطيرة سمينة تغرق فى شرابها اللماح ، وانتهى الى داره يحمل الفطيرة فى دثار من لفائف واقية

ولـما تخطى عتبة الدار ، برزت له الصبية قافزة تسأله

ماذا جلب لها معه ، فاقتعد الأرض ، وأجلس « عصفورة » على ركبتيه ، وفض اللفيفة ، فتجلت الفطيرة منتفخة شامخة تسبح فى شرابها الشهى ، فصفقت الصغيرة من طرب ، وصاحت تقول :

ـ أهذه لى ... كلها لى ؟

ـ هى لك كلها يا « عصفورتى »

وطفق الأب يقتطع من الفطيرة لقيمة اثر لقيمة ، و « العصفورة » تتلقى اللقيمات فتلتهمها فى نشوة ، فسألها أبوها :

ـ هل أعجبتك الفطيرة ؟

ـ حلوة ... حلوة !

ولم تلبث أن تشبثت برقبته ، وقبلت فمه قبلة جامحة أحس الأب على أثرها بالشراب الحلو يندى شفتيه ، فلعقه مستطيبا اياه ، وقال :

ـ سأحمل اليك كل « يوم جمعة » فطيرة مثل هذه الفطيرة ...

وبر الأب بوعده ، فدأب على أن يخترق الدرب المعهود ، بعد ان يفرغ من صلاته ، ويقصد الى بائع الفطير فى ركنه الأمين ، يتخير من فطائره فطيرة سمينة ريانة بالشراب المعسول ، ويعجل بها الى داره ، فيطعم عصفورته اياها لقيمة لقيمة ، وهو جذلان النفس بما يرتسم على محياها الوادع من بشر وابتهاج

واحتلت « فطيرة الجمعة » من قلب « العصفورة » أسمى مكان ، فكانت تتحدث عنها ، وترتقب موعدها ،

فيزداد الأب من حرص على شرائها كلما انفتل من صلاة الجمعة ، وانه ليذكرها فى قيامه وركوعه وسجوده ، وهو يكبر الله ويسبح له فى هذا الحشد الزاخر من المصلين ، متمثلا عصفورته وهى تطعم اللقيمات مستمرئة ، يتسايل على جوانب فمها الشراب اللماح

وتواصلت الايام ، فتواصلت معها هذه الحياة الجياشة التى ارتجت بها انحاء الدار ، بعد أن كانت مثابة الملالة والعبوس والاستيحاش

ترى ماذا كان من أمر « القدر » ازاء هذه الدار التى استقر بها القرار ؟

أترى « القدر » ضاق ذرعا بما يترسل على الدار من اشراق ولألاء ، اذ وجد فيه لونا من الثبات والاستمرار لا يتفق وجوهر الحياة ؟

هل يرضى « القدر » حالا واحدا ، ونمطا راتبا ، لا يعروه تحويل ولا تعديل ؟

ان دوام الحال من المحال ، وأن « القدر » ليحن الى أن يجدد فى الأزياء والأنماط والصور ، فلتأخذ تلك الدار نصيبها من تجديد لا معدى عنه لشىء فى هذا الوجود !

رفع « القدر » صولجانه الخالد ، وهزه فى الفضاء هزة خفيفة ، فاذا « العصفورة » يدهمها مرض عضال ، واذا هى تقضى نحبها فى سويعات قلال !

وهكذا طارت « العصفورة » من عشها الأمين ، فطار معها الاشراق واللألاء ، وطارت اليقظة والصخب البهيج ، وعاود الدار خمول وكآبة خرساء !

أجل ، عاود الخواء هذه الدار من جديد ، ولكنه خواء كله تعذيب وتلويع وايلام ، خواء يطعن ولا يقتل ، يطحن ولا يفنى ، يميت القلب كل ساعة ثم يحييه ليعانى كربات الموت عودا على بدء !

ومرت الأيام ...

وجثم على صدر « المعلم يونس » تبلد ما أشبهه بسبات عقيم ... لكأنه تائه فى أضغاث حلم مفزع مهوش ، تتنافر فيه المشاهد ، وتتباين الصور والاوضاع ...

وكان أحيانا تتخايل له فى أعطاف هذا الحلم مرائى عزيزة عليه ، محببة اليه ، ينعم بها لحظات فى أعذب الذكريات ...

ولكن سرعان ما تتكاثف الغيوم حواليـه ، ويعلو زئير العواصف دونه ، وتثور الكائنات أمام عينيه مسعورة ، كأنما قد أصابتها جنة ، وتهطل الأمطار الغزار متدفعة ، كأنما السماء قد انشقت فاندفق السيل الحبيس ، وتدور بالرجل غوارب الموج بين تصعيد وتصويب ...

فاذا أمسكت العواصف ، وصحت السماء ، استيقظ الرجل يمسح فى مآقيه بقايا الدمع السخين ... وبغتة تنبثق فى رأسه خاطر ، فينهض مستوفزا يتلفت وهو يتساءل :

ـ أليس اليوم « يوم الجمعة » ؟

ويجد الرجل فى سيره على الطريق نحو المسجد ، ويقف بين صفوف المصلين مصغيا الى شيخ المنبر وهو يقرع الأسماع بوعظه الرنان . ولكن الرجل لا يعتم أن تبرز فى مخيلته « فطيرة الجمعة » مالكة عليه مشاعره ، فيتمثلها

ملى صور أشتات ، كيف كان يتخيرها سمينة ينساب
فوقها شرابها اللماح ؟ كيف كان يطويها فى دثارها من ورق
غليظ ؟ كيف كان يحرص على أن تظل منتفخة سوية
حتى يبلغ بها الدار ؟ كيف كان يجلس « عصفورته » على
ركبتيه ليلقمها الفطيرة قطعة بعد قطعة؟ كيف كان يرقب ذلك
الفم الدقيق وهو يزدرد اللقيمات فى شغف واستمراء ؟!

واشتد وجيب قلبه ، وهو بين يدى الله يؤدى الصلا
فما كاد يخرج من صلاته بالتسليم يمنة ويسرة ، حتى
مرق من الصفوف يختطف نعليه ، ويعدو الى الدرب المعهو

ذلك هو بائع الفطير فى ركنه المختار ، وأمامه الصيني
تتراصف عليهـا الفطائر المبرقشة وهى تتألق فى وهج
الشمس ... انه ليدنو منه ، وانه لينتقى فطيرة سمين
يطويها فى دثار غليظ ، وانه لينصرف متابعا سيره ..
ولكن الى أين ؟!

هاهوذا ينحرف عن الطريق المفضى الى الدار ، ويتخ
سبيله الى الصحراء ... خطواته سراع ، وأنفاسه مبهور
ويده تحمل اللفيفة فى عناية وحرص ... أثمة من يرتقب
وصوله ، فهو لا يستأنى فى سيره ، حتى لا يطول انتظ
من ينتظره هنالك فى عالم الصمت والسكون ؟!

تابع الرجل خطاه ، وعيناه ثابتتان فى محجريهما كأنهم
عينا تمثال لا تطرفان ، وقلبه يخفق كأنه بين جنبيه طائ
يرفرف بجناحيه

وأخيرا لاحت له المدافن ، تحتل بسيطا من الارض
كأنها مدينة عامرة ، فهذه أبنية مشيدة ، ومسالك ممهدة

وتلك رياض خضر ترويها الجداول وتنبت فيها الوان الأزاهير

وانتحى الرجل ناحية متواضعة مستوحشة ، تتعالى فيها الرمال ، وتتناثر الاحجار ، وتتطامن بينها قبور عفت عليها الأيام ، وعملت فيها يد البلى والانهيار ...

وهنالك ، أمام قبر صغير ، يبدو من طلائه الأبيض الناصع أنه حديث عهد باستقبال ضيف ، مثل الرجل خاشعا يهمهم بأدعية وتسابيح ... وما هى الا أن افترش الأرض ، وحل وثاق اللفيفة ، فتجلت الفطيرة رقراقة الشراب ، فانكب عليها الرجل يقطعها لقيمات صغيرة فى تمهل وتنسيق ، وأحس أصابعه يتساقط منها الشراب قطرات ، فجعل يلعقها مستعذبا ما لها من مذاق ، وعلى فمه طيف ابتسامة يسنح كما يسنح الأمل الشرود

ونهض الرجل يحمل اللقيمات بين يديه ، ثم دنا من القبر فى رفق ، وطفق ينثر على حافته لقيمة لقيمة ، وعاد الى مجلسه يولى القبر نظرات شوق وتحنان ، وتثاقل جفناه ، فأرخاهما يتهادى به سبات

واستيقظ « المعلم يونس » يستمع الى صوت أغن ، خيل اليه أنه يناديه ... وحانت منه لفتة ، فاذا هو يرى « عصفورة » رشيقة فوق الجدث تحلق وتسقسق ، فجعل ينظر اليها بمجامع عينيه ، فاغرا فمه ، وقلبه يزداد به وجيب . وما راعه الا أن لقيمات الفطيرة التى نثرها على حافة القبر لم يبق منها الا فتات ...

ترى أين ذهبت اللقيمات ؟

ودار بعينيه يمنة ويسرة ، وجعل يتبين على مد البصر هنا وهنالك ، فلم يظهر له أحد ... الا هذه العصفورة التى تتواثب فى نشطة ومراح ، وهى تلتقط نثار الفطيرة على حافة القبر ، ثم تبسط جناحيها ضاربة فى الفضاء ، ثم تهبط على القبر مطيفة به ، حائمة فى تطوافها على الاب الجالس على أديم الارض ، تسقسق له بصوتها الاغن ،والاب متعلق النظر بها ، لا تحيد عيناه عنها ، وكأن قلبه يتابع خفوقها بخفوقه ...

ولبثت « العصفورة » على ذلك بعض وقت ، ثم تسامت فى جو السماء ، وأغرودتها تنساب حواليها وتتزايل معها فى رقة وترنيم ...

رجع «المعلم يونس» الى داره يهرول ، وبين حناياه اهتياج فما بلغ الباب حتى صاح ينادى زوجه مجلجل الصوت :

« شلبية ... شلبية » ...

وعجلت اليه الزوج ، فبادرها يقول متلاحق الانفاس :

– ألا تعلمين الخبر ؟

– أى خبر ؟

– لقد أكلت هى نفسها الفطيرة كلها ...

– من يا رجل ؟

– هى ... هى ... « العصفورة » ...

فغام وجه المرأة ، وقالت لزوجها فى لهجة محزونة :

– أى عصفورة يا معلم يونس ؟ ... « العصفورة » اختارها الله ... عند الله ... الصبر بالله !

فقال لها الرجل فى شىء من الحنق :

ـ أقسم لك على ما أقول ... الا تصدقيننى ؟ لقد رأيت روحها تطير فوق القبر ، «عصفورة» تتحدث الى، وتأنس بى، وتقبل على الفطيرة تأكلها فى تلذذ واستمراء ... انها هى لاشك ... ألست مؤمنة ؟ سبحان الله القدير !

ونظرت الزوجة الى رجلها وقد عرتها دهشة أسلمتها الى سهوم ، وقالت فى همهمة :

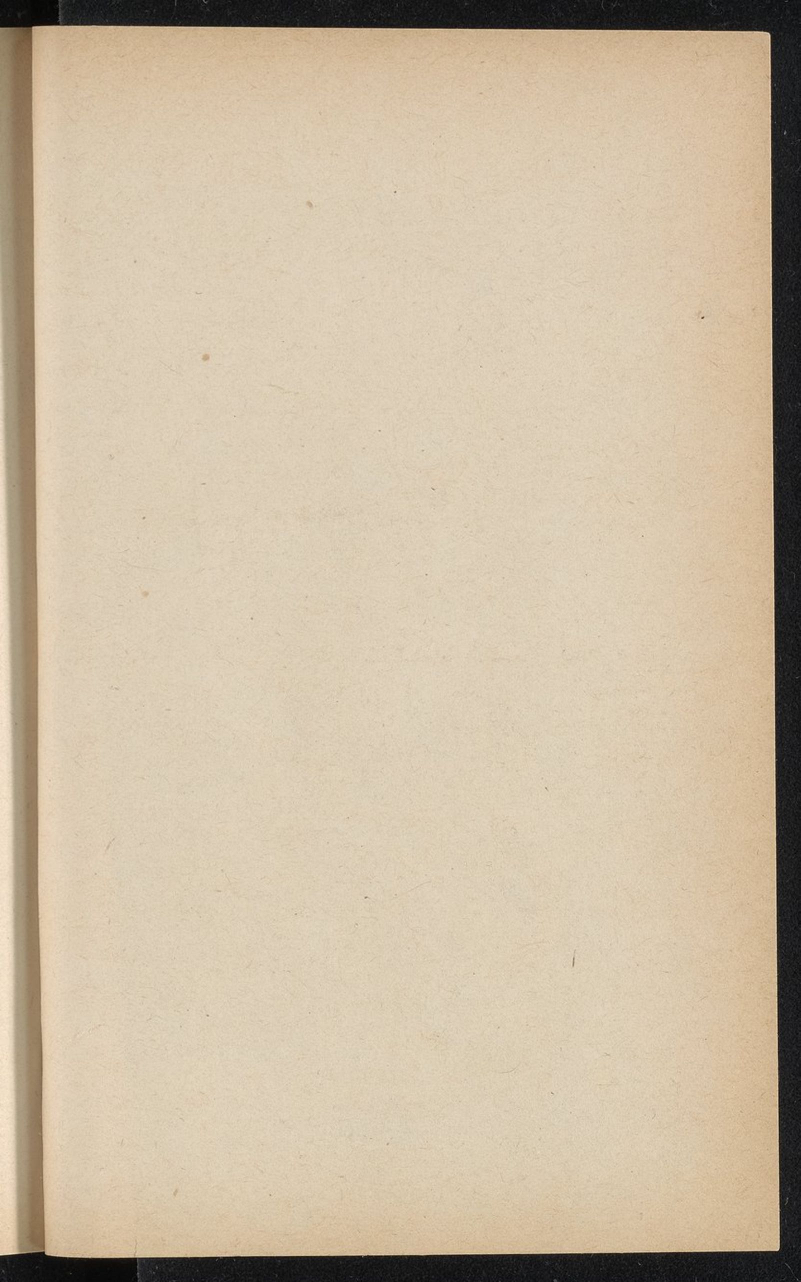
ـ روحها ... « العصفورة » ... تطير فوق القبر ...

وحدقت فيه مستطلعة ، فظل يردد قوله ، ويؤكده جهير الصوت ، ووجهه تفيض عليه غبطة وسماحة وارتياح

ومنذ ذلك اليوم ، دأب « المعلم يونس » على أن يشترى الفطيرة المعهودة بعد صلاة « الجمعة » ، وأن يذهب بها من ساعته الى المدفن ، لكى يقدمها الى « عصفورته » ...

وعاش بذلك هانىء البال !





أم مستحيل

هل يستسلم الانسان لعجزه ؟
انه يحاول ان ينتزع من الضعف
قوة ، ومن الضعة رفعة ، وان
كانت هذه القوة والرفعة فى حياة
أخرى غير حياته ... بل بعد
حياته !

اتراك من رواد المساجد فى يوم الجمعة ، تختلف اليها لاداء الصلاة الجامعة ؟

ها انت ذا قد فرغت من الصلاة ، فتأبطت حذاءك ، متهيئا للخروج ، ومثلت بالباب تعـــالج انتعال الحذاء ، والجمع الدافق حواليك يدعوك الى الاسراع

الم تحس مرة وأنت فى هذا الموقف بشىء يأخذ برجلك، يحاول أن يعينك فى عملك ، وهو مكب بطرف ثوبه المهلهل على الحذاء يميط عنه الغبار ، ولسانه يلهج بدعاء فيه ضراعة وتشفع واسترحام ؟

لا عليك أن تعنى نفسك بتفقد هذا الشىء الجاثم عنـــد قدميك ، فهو معهود لديك ، ليس بالغريب عنك ، ولا حيلة لك فى أمره الا أن تلقى اليه بقطعة من النقود، وأنت تهمهم :

ـ ام سحلول ... دائما انت ؟

فتتقبل المرأة منحتك فى بشاشة ، ولا تلبث أن ترفع يديها الى السماء تستمطرها خيرا لك ، وبركة عليك ، ثم تنحرف عنك الى غيرك ، محنية الهامة ، قميئة القامة ، تأخذ بطرف ثوبها المهلهل الى وجهها تمسحه ، ثم تخص به أنفها تتمخط

« أم سحلول » ... وهل يجهلها من أهل المساجد أحد؟

انها هى منذ خمسة وعشرين عاما ، تدرج ذليلة المشية ، مهزولة البنية ، فى أسمال زرق !

لا تراها أبد الا مخفوضة الرأس ، كأنها تقتفى مواطىء الاقدام ، أو كأن بعينها داء لا تستطيع معه أن تواجـه الاضواء ، فهى تتحاشاها بالاطراق

لا تسمع منها أبدا الا تلك النغمة الواهنة المستضعفة ، وهى منكفئة على نعال المصلين ، تستعطف قلوبهم حين تقول :

ـ ارحموا اما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

عرف الناس « أم سحلول » بهذه الميزات الخاصة، وأكثر من ضاقوا بها ذرعا هم أولئك السائلون الذين وجدوا فيها منافسا خطيرا يزحمهم على الكسب الميسور، فكانوا يناوئونها بمختلف ألوان المناوأة ، يتعمـدونها بالضرب الوجيع ، ويغتصبون منها ما جمعت من عطايا ومنح ، ويصدونها عن السبيل كلما أقبلت على السبيل

بيد أن المرأة صابرت ورابطت ، واحتملت ما تلقى من عنت واضطهاد ، وظلت تتنقل على أبواب المساجد ، تتصيد من يصدر عنها من المصلين ، تعينهم على انتعال الاحذية واماطة الغبار عنها ، كأنها تهم بتقبيلها تذللا ومسكنة

لم تكن « أم سحلول » محببة الى رفاقها من أهل السؤال والاستجداء ، ولم تكن كذلك فى الاحياء التى تلم بها محببة الى الأهلين من عامة الناس ، فهم ينفرون منها ، ويضجرون بها ، ولا تكاد تجد عندهم قبولا ولا حظوة

وكانت « أم سحلول » تعجب من أولئك الذين يفسحون صدورهم للسائلين دونها ، اذ يفوتها أن الاستجداء يجب

أن يحاط بمظهر براق ، حتى يبلغ من النفوس مبلغ الاشفاق فلابد ان يكون صوت الضراعة على ضعفه جهيرا يهز المسامع، ولابد أن يكون للمستجدى من الضمادات والخرق والعكازات ما يسترعى الانظار ... وهذه المرأة المسكينة لا تتمتع بشىء من تلك المؤثرات جميعا ، فلا جراح دامية ، ولا قدم متورمة ، ولا عمامة خضراء تناطح الجوزاء ، وليس لها ذلك الصوت الابح المتسلخ يتعالى به حلق صاحبه كأنه ثور ذبيح يسلم الروح

لقد عجزت « ام سحلول » عن ان تكون من طائفة المتسولين العتاة ، فما هى بشحاذة توافرت لها أدوات ذلك الفن الاصيل ...

هى آدمية اختارت لها الاقدار ذلك الحظ من التشريد ، وهى تكافح وتنافح لكى تكفل طفلها الوحيد ...

لم تكذب المرأة فى دعواها ان لها طفلا يتيما ترعاه ، ولولا هذا الطفل لكان لها مصير غير ذلك المصير ، وأغلب الظن أنه لولا طفلها هذا لودعت حياتها منذ عهد بعيد ، ولكنها يوم احتضنته وليدا أحست شعلة الامومة تتقد بين جنبيها أيما توقد ، فبنت عزمها على أن تحيل تلك المزقة الحية التافهة كائنا له مكانة وخطر

مضت خمسة وعشرون عاما ، والمرأة خلالها تلوذ بأبواب المساجد والضرائح مستجدية ، وما برح لسانها يتضرع الى المحسنين بتلك الجملة الخالدة التى لا يعتريها التغيير والتبديل :

ــ ارحموا أما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

أترى يلبث ابنها اليتيم طفلا تلحق به صفة الطفولة واليـ
على مر السنين ، وان جاوزت خمسا وعشرين ؟!

ألم تدرك « أم سحلول » أن طفلها قد كبر وترعرع
حتى صار شابا رائع الشباب ، يسعى فى الحياة سـ
العاملين ؟!

انها لتأبى الا أن تعده ما برح طفلا وان بلغ مبلغ الرجا
وان انفصل عنها يكدح ويغامر ، فهو على الرغم من كل شي
ذلك الطفل المستضعف المهيض الجناح ، لا غنية له عن كفا
أمه ترعاه وتحدب عليه !

نشأت « أم سحلول » فى كنف رجل جزار يعمل فى المذبح
كأنما صاغته الطبيعة ليمثل طائفته من الجزارين خير تمثيل
قامة فارعة ، وألواح عراض ، وشارب غليظ مسنون يقف
عليه الصقر كما يقولون فى الامثال

نشأت هذه المرأة فى كنفه ، وهى صبية لا تعرف مـ
ماضيها أى شىء ، أصابها فى بعض الطريق طفلة لا تكا
تبين ، اذ التقطها رأفة بها ومرحمة ، فاليه يرجع الفضـ
كل الفضل فى بقائها حية كسائر الاحياء

ذلك ما كان يردده الرجل على سمعها صباح مساء ، وهـ
مزهو يفتل شاربه ، فلا غرو أن تؤمن بما له عليها من منة
وأن تجزيه على احسانه اليها ولاء موصولا وطاعة عمياء
تخلص له فى الخدمة وان أغلظ لها فى القول ، وتضطلـ
بأعبائه وان قسا عليها فى المعاملة ، وما أكثر ما عانت مـ
عربدته حين يئوب اليها فى جوف الليل ، سكران يترنح ..
على رأسها يصب ما فى رأسه من نزوات الخمر !

كان مولاها وسيدها هذا لا يفتر عن تذكيرها بما لها من ضآلة وتفاهة ، وهو الذى دعاها « أم سحلول » قبل أن تبلغ الحلم ، تهاونا بها وسخرية ، فحملت هذه الكنية قبل أن تعرف كنه الامومة ، وتقبلتها دون أنفة ولا تذمر ، واستقر فى أعماق نفسها أنها كما ينعتها مولاها وكما ينعتها سائر الناس من حولها أحقر مخلوقات الله جميعا وأبشعهن صورة ...

وانساقت الاعوام بتلك الصبية ، حتى جاوزت السادسة عشرة ، وهى على حالها مخلوقة لا تحنو عليها الطبيعة بشىء من فتنة الانثى ، ولا حظ لها من العيش الا هذا اللون الدائب من المهانة والمقت والاذلال

ويوما ألفت نفسها شريد طريق ، لا عائل لها ولا مأوى أين سيدها ومولاها ؟ لم تدر من شأنه الا قول الشرطى لها :

ـ انه لن يعود !

وصافحت سمعها أقاويل عن سيدها ، يتناقل الناس فيها حديث القاتل الذى ينتظر مصيره المحتوم ، مشنقة الاعدام !

فارتاعت لما تسمع ، ولكنها لم تستجل الامر على حقيقته ... وعلى مألوف عادتها أذعنت لما تواجهها به الايام من أحداث

لم تملك « أم سحلول » الا أن تودع ذلك الحى الذى عاشت فيه ردحا من الزمن ، وتركت نفسها نهبا لغمرات الحياة ، خائرة القوى ، مشدوهة حيرى ، لا تعرف كيف

تنقل خطاها ، وأوشكت أن تهوى بها الغمرات الى القرار .
ولكن سرعان ما أحست شيئا يختلج فى أحشـــائها ، كأنه يعلمها بوجوده ، واستبان لها الامر ، وخيل اليها أنها تسمع هاتفا رخى الصوت يقول :

ـ لقد جئتك من عالم الظلام المجهول ، فماذا أنت صانعة بى ؟

وبغتة شعرت المرأة بيقظة تدب فى أوصالها ، فاندفعت تبكى ، ثم انثنت تضحك ، واستبد بها هياج يختلط فيه الضحك بالبكاء

منذ ذلك الحين عرفت « أم سحلول » أن لحياتها شأنا أى شأن ...

منذ ذلك الحين أيقنت ذات الجنين أنها لم تعد تافهة كما كانت من قبل ...

انها كسائر الكائنات يجب أن تعيش وأن تكدح ...

لقد أصبحت « أما » ، وحسبها ذلك من دافع وحافز ، وهل تركت الامومة بعدها فخرا تعتز به الانثى ؟

تلك هى « أم سحلول » بحق ... « أم » فى عالم الكرامة والتقدير والاعتبار ، لا فى عالم الوهم والسخرية والاحتقار!

عرفت المرأة طريقها الى المساجد والاضرحة ، هدتها اليها الفطرة الساذجة ، وأتيح لها فى ذلك الميدان جانب توفيق ، فحمدت لله ما أفاء عليها من نعمة طيبة ، وثابرت على خطتها فى نشاط وحمية ، حتى استطاعت أن تؤسس لها مأوى فى زقاق من أزقة « التربيعة » : حجرة ضيقة مستهدمة ، لا يهتدى اليها ضـــوء الشمس فى شتاء أو صيف

وما احتياج المرأة الى الضوء حين تئوب الى مأواها المختار؟
انها لتلبث عامة يومها تذرع الطرقات ، وتتردد على أبواب المساجد والضرائح ، تلوك فى فمها المضغة المعهودة لكل من تلقاه :

ـ ارحموا أما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

فلا يكاد يدبر اليوم حتى تكون المرأة قد أثقلها التعب ، وأعياها الطواف ، فهى تأنس فى حجرتها الضيقة بذلك الظلام الذى يهدى الى جسدها الراحة والدعة ويسبغ على نفسها السكينة والهدوء

فى هذا المأوى وضعت « أم سحلول » وليدها المرتقب ، وبين جدرانه كان منشؤه ومرباه ، ومنه خرج سليل الظلام يستقبل نور الحياة فى دنيا الامل والعمل والكفاح

وحرصت تلك الشريدة الطريدة ، ربيبة المهانة والبأساء، على أن تحوط ذلك الوليد النابت بالرعاية ، وأن تحميه من عوامل البؤس والتشريد ، وأن تحيله كائنا له فى الدنيا مكانة وخطر ، على نحو ما كانت تبغى أن يكون !

لطالما أخذت « أم سحلول » طفلها بين يديها ترقصه فى تلك الحجرة المعتمة على بصيص من ذبالة المصباح الاعفروهى تناجيه بقولها :

ـ لتغدون أعظم من أبيك ... وليكونن لك شأن !

ثم تضمه الى صدرها فى شغف، وفمها على فمه ملتحمان فى قبلات يسيل منها دمعها الحنون

وكلما وقع بصرها على رجل مهيب الطلعة ، وجيه الشارة ، ناجت نفسها تقول :

– لماذا لا يكون ابنى مثل هذا الرجل ؟ . . . فليحرسه الله !

فان مرت بدار أنيقة المظهر ، رفيعة الطباق ، شخصت اليها تقول :

– لماذا لا يسكن ابنى مثل تلك الدار ؟ . . . فليحرسه الله !

وان جازت بها سيارة فارهة المنظر ، لامعة الطلاء أتبعتها نظرها تقول :

– ليكونن لابنى سيارة كهذه السيارة . . . فليحرسه الله!

واستمرت المرأة تعمل ، ناشطة السعى ، تزداد من تشبث بالحياة ، وتضطلع بما تجابهها به أعباء العيش ، من أجل طفلها المرموق . . . تحرم نفسها القوت لتطعمه من الطيبات، وتقنع من الكسوة بالمرقعات لتكسوه المستجاد من الثياب ، ولا تفتر عن تنظيفه وملاحظة هندامه على حين تبدو هى فى أوضار وأقذار

وما أن استطاع الغلام أن يفهم عنها حتى كان أكثر حديثها معه نصحها له بأن يكون مهذب النفس ، موفور الكرامة ، رفيع المقام . . . تكرر ذلك على سمعه قبل أن تنصرف عنه مصبحة ، وبعد أن تعود اليه ممسية ، وهى فيما بين ذلك غارقة فى الاذلال والامتهان ، تريق ماء وجهها طول النهار بالاستجداء ، وتنمى ثروتها على الايام بما تدخر من عطايا الكرام

ترعرع الغلام ، وايفع ، وضمته معاهد التعليم ، وتلقى فيها ضروب المعرفة ، فأقبل على درسه ماضى الهمة، مرهف

الفطنة ، تلهب أمه من عزمه ، وتبصره بأن الحياة صلابة وجد ، وأن النجاح سبيله الاستماتة فى الكفاح

ولما شب الفتى عن الطوق ، أفردته « أم سحلول » فى حجرة لائقة به ، واختارت له هذه الحجرة فى بيت حديث البناء يقوم على ناصية « الشارع الكبير » كما كانت تسميه ... أما هى فاستبقت ذلك الجحر المعتم تحيا فيه حياتها الراتبة

وكانت تؤم حجرة ابنها تقوم فيها بالخدمة ، فتغسل الثياب ، وتنظف الاثاث ، وتطهو الطعام ... فان اضطرت أن تتحدث الى بعض الجيرة أوهمتهم أنها كانت على صلة بأسرة الفتى ، وأنها تعلقت به ، وأخلصت له ، وستبقى على العهد تخدمه

واحيانا يسألها الفتى :

ـ لماذا لا تقيمين معى يا أماه ؟

فتخفض « أم سحلول » بصرها ، وتأخذ بطرف ثوبها تثنيه وتبسطه ثم تجيب :

ـ دعنى وما أنا فيه يا بنى ، فان لك شأنا غير شأنى... أنا « أم سحلول » .... عرفت حياتى وألفتها ... ولن أغيرها ما بقى لى وجود ... أما أنت فلك عالمك ومستقبلك، تحيا فيه وتنعم به ، وتتملى ما فيه من سعادة وعزة ورقى ... فليحرسك الله !

ثم تسمو بهامتها اليه ، تستطلع اثر حديثها فى وجهه ، وقد انتفضت نفسها بالحنو ، ونديت عينها بالدموع

وترادفت أعوام ، والمرأة تنفق على ولدها فى سخاء ،

وتشرف على تربيته وتخريجه بوحى من بصيرة الام الرءوم

واقتحم الشاب ميدان العمل ، فأسند اليه منصب فى احدى الشركات يدر عليه من الرزق ما يكفل له عيشة راضية ، فانتقل الى شقة فاخرة ، واقتنى سيارة انيقة ، واصطنع الخدم يقومون بشأنه ، وأمه على حالها فى جحرها العتيق ، تزهو بسعيها الموفق ، وثمرتها الناضجة ، وتنشد لعزيزها النماء والمزيد

ولقد أقلت من زيارتها له ، حتى لا تثير الشبهات من حوله ، فكانت تحرم نفسها رؤيته ، لكى تجنبه ما يعكر صفوه ويشوب هناءته ...

ولشد ما عالج ابنها أن يجتذبها الى مسكنه ، وان يقرها فيه ، فأبت عليه ، وأصرت أن تدعه كما هو وحده ، وان تكون هى عنه بمعزل ، لا تبغى بحياتها من بديل

وجعلت المرأة تشتد فى جمع المال أكثر مما كانت تفعل ، فهى تعمل جاهدة فى الاستجداء ، حتى يتوافر لها قدر من المال عظيم ترصده لغرض معلوم

حق لابنها أن يتزوج ...

ذلك هو شغلها الشاغل ، وتلك هى أمنيتها الغالية ، فلتبذل ما أوتيت من جهد لكى يكتمل لها من المال ما يصلح أن يكون مهر عروس ، وما يتبع ذلك من تكاليف أفراح الزفاف

لن يهدأ لها بال حتى ينعم ابنها بالزواج ، فتكون له امرأة أنيسة يرزق منها بالذرية الصالحة ...

لن يطيب لها عيش حتى يهنأ ابنها فى ظل أسرة يحوطها الصفاء والوئام ...

حتم أن يسعد ابنها بكل ما حرمتها الاقدار اياه ...
ليس ابنها فى الحق الا صورتها الاصيلة ، بل هو جوهرها الخالص ، بل انه هى نفسها لا ريب فى ذلك ولا نزاع ...
فكل ما يستشعره هو من رفاهة ونعيم تحسه هى كاملا غير منقوص
انها لتأكل طعامه وتستمرئه، وان لم يمس شفتيها مذاقه
انها لتحيا حياته ، تتقلب على وثير فراشه الملون بألوان الزهر والريحان ، وتتنقل فى سيارته ذات البوق الرنان ، وان كانت فى جحرها الخرب ماكثة لا تطأ الشقة الفاخرة الا خلسة تخشى أن تقع عليها العيون ، ولا ترى السيارة الا خطفا حين تنهب الارض فى معاطف الطريق
انها لتحس ما يحس ابنها من عزة وكرامة ، وان ظلت على أبواب المساجد والاضرحة مبسوطة الكف للسؤال ، منحنية على مواطىء الاقدام تمسح النعال
لم تبق لها من متعة فى الحياة تهفو اليها الا أن تشعر بالفرحة الكبرى : « فرحة الزواج »
فليتزوج ابنها عما قليل ، وليكن زواجه فى حفل بهيج ، يجتمع على موائده الكبراء والسراة والحكام ، وتصدح فيه الموسيقى بآلاتها الضخمة وأنغامها العذاب ، ويصطف رجال الشرطة بالابواب يرفعون أيديهم بالتحية للقصاد ويهيمنون على النظام !
ليكونن الحفل عظيما تتحدث عنه المدينة بأروع ماتتحدث عن الافراح والليالى الملاح !
وتم « لام سحلول » ما كانت تريد
خطب ابنها « بنت الحلال »، فتاة كريمة العرق ، وسرعان

ما ضرب لحفل الزفاف موعد قريب

وحل اليوم العظيم ، ذلك الذى ترتقبه « أم سحلول »
منذ عهد بعيد ، ولقد أكرمها الله اذ حباها بما كانت تصبو
اليه ، فما يكون لها بعد ذلك من مطمح فى الحياة

فى هذا اليوم تختتم مرحلة الشقوة والكد والعناء ، لتبدأ
مرحلة جديدة من الطمأنينة والهدوء والاستقرار

فى هذا اليوم تكمل رسالتها فى ذلك الوجود ، وتتم انجاز
واجبها الذى ناطته بها الاقدار

واضطرمت فى نفس المرأة حيوية لم تعهدها من قبل
واستشعرت قوة واقتدارا لم تعرفهما فى ماضيها الغابر
فذلك انقلاب شامل يطرأ على تلك النفس المستكنة المتخاضعة
اللائذة بالصمت والظلام

انها مخلوق جديد لا يمت الى شخصها القديم بنسب
قريب أو بعيد

لقد اختارت اليوم لنفسها اسما مستحدثا تعرف به
« أم البك »

ولقد أرسلت من يشيع فى بيت ابنها أن « أم البك »
قدمت من الضيعة فى الصعيد الاعلى لتشهد وحيدها العزيز
فى حفل زواجه السعيد

وقضت « أم البك » يومها الاطول تتنقل بين « البلانة »
و « الماشطة » فى الحمام ، وبين أيدى النساء يشرفن على
زينتها وملبسها فى بيت خياطة مشهود لها بالمهارة والاتقان

ولما توارت شمس النهار لتسمح لشموس الحفل من
المصابيح الكهربية ان تتوهج مختلفة الالوان ، بدت « أم
سحلول » وسط الجمع تتخطر ، تارة تحيى الضيوف

وقار وشموخ ، وتارة تطارحهم الحديث فى أنس يمازجه ترفع ، واذا هى تلتفت بغتة ، لتصدر الاوامر فى سطوة واعتزاز ، جهيرة الصوت ، مرفوعة الهامة ، كأنها قائد فيلق فى موقعة فاصلة

لقد ظهرت « أم سحلول » فى حلة قشيبة زاهية. تطول قامتها بما انتعلت من حذاء عالى الكعب أنيق ، ويمتلىء جسدها بما احتشت من أثواب أشتات ، ويعلو صدرها بما ركب فيه من حشيتين ناهدتين ، بدت بهما المرأة كأنهـــا عذراء كاعب

ولقد أجادت الماشطة عملها أيما اجادة ، فأخرجت من المرأة حسناء مكحولة الجفن ، مزججة الحاجب ، مكسوة الشعربالسواد اللامع، مطليةالوجهبأخلاط العبيروالمساحيق، مصبوغة الشفة بالحمرة القانية ، حتى غدت كأنها دمية للزينة زاهية الالوان

ورئيت « أم سحلول » تنساب من بين أناملها العطايا والمنح ، فتتلقفها جوقة الغناء والرقص ، ويتلقطها الخدم والحشم ، وانطلق الهتاف « بأم البك » تتقاذف به الافواه فى حفاوة وتكريم واعجاب ، وانبعثت أنظار الجمع تتحلق حول « أم البك » سائرة فى تبختر وخيلاء ، وهم يفسحون لها الطريق ، ويحنون من هاماتهم فى تجلة واكبار

وتصدرت « ام سحلول » مقصف الحفل ، وطفقت توزع بيديها ما لذ من الطعام وما طاب من الشراب، سخية بالاعطاء ، ملحة فيه ، حتى لم تدع أحدا الا نولته من فيض خيرها العميم

ثم عدلت عن المقصف تريد الطريق ، والخدم من ورائها

يحملون قصاع الثريد وصحاف الحلوى ، واذا هى تطعم العفاة المزدحمين بباب الدار ، فتعالت أصواتهم يمتدحون « أم البك » ويدعون لها أخلص الدعوات

وانقضت ساعات الليل ، والحفل ساهر فى طرب ومراح لا يخبو له رونق ، و « أم سحلول » تتراءى كأنما هى العروس ، وما زوج ابنهـــا الا احدى الوصائف فى حفل الزفاف

وفى مبرق الفجر تزايلت أضواء المصابيح ، وتخافتت أصوات السمار ، وما هى الا أن أطبق السكون العميق على جوانب الدار

وصعدت « أم سحلول » الى غرفة أعدت لها فى السطح، فتخاذلت أوصالها على فراش وثير ، تسترسل بها الاحلام فى شتى الاجواء

وفى ساعة الظهيرة حين جليت مائدة الغداء ، قصد الى الحجرة رسول يوقظ المرأة من النوم ، لتشرك الاسرة فى الطعام ، فألفاها الرسول جثة بلا حراك

وكان أكبر شىء يسترعى النظر فيها ما يتجلى على محياها المشرق من صفاء وراحة واطمئنان ...

لقد نعمت بزبدة الحياة فى ليلة يا لها من ليلة ، فليست هى أهلا بعدها لحياة ...

لم يعد « لام سحلول » مكان فى حياتها السابقة التى كانت تحياها من قبل اذ أدت واجبها فيها كل الاداء ، واطمأنت نفسها بما انتهت اليه ، وفرغت منه

ولا مكان « لام سحلول » فى تلك الحياة الجديدة التى يستقبلها ابنها العزيز فى ظل زواجه السعيد

انها لتنطلق الآن سابحة فى الآفاق العلوية ، راضـــية مرضية ، وقد تخلصت من القيود والاثقال !

خائب الدهر

صورة من حياة فئة حسبت نفسها
من الخيرة الممتازة . ولكنها لم تعمل فى
الحياة ما يحقق هذا الظن ... ربطت
نفسها بالماضى ، ولم تسـاير الزمن ،
معتقدة ان الماضى هو عالم الخير المحض.
وعاشت على الاوهام فى عالم الاحلام ،
ففنيت فيه وزالت من الوجود !

ذلك آخر ايامى لا محالة ... وما احسب ان الشمس طالعة غدا ، ولى فى هذه الحياة انفاس

لم يعد قلبى مستطيعا أن يواصل الخفوق ، واذن فأنا من مصيرى العاجل على ثقة لا يتطرق اليها ارتياب

لن يعودنى الطبيب منذ اليوم ، فقدصرفته عنى ، وطلبت اليه ألا يعود

ويح هذا الطبيب ، من مخادع كذوب ! ... انه ليموه الحقيقة على ، ويكتم ما يعلم من أمرى ، ويتخذ فى تضليله اياى أساليب تستدعى أن أرثى له ، بل انه ليثيرفى نفسىأبلغ السخط والحنق

من يظننى هذا الغر المأفون ؟ لكأنه يظننى طفلا يريد ان يغرر به ، ويسخر منه ؟

وما انتفاعى بذلك الطبيب ، وأنا أعلم من خبيئة أمرىمالا يعلم ألف طبيب وطبيب ؟

لقد وهبنى الله بصيرة مرهفة ، لا يسمو اليها علم الاطباء ، وانى بتلك البصيرةلأستجلى ما دق من اسرار الحياةوالاحياء

يقينى أن بقائى فى الدنيا قليل ، وأن رحيلى عنها وشيك لا تثريب على اذن فى أن أتخذ من الاهبة مايتخذ الراحل الى غير مآب ... أستصفى ما يتصل بى من عمل ، واستدعى اللحاد لأشير عليه بما ارى فى شأن القبر الذى

يحتوينى ، ولم أنس أن أوصى بما تكون عليه جنازتى فى طريقها الى ساحة الصمت والسكون

لقد اطمأن قلبى بما دبرت وما أشرت وما أوصيت ، وهأنذا أستقبل الموت فى سكينة واستسلام

حان حينى ... تلك ارادة القدر ، ولا مرد لما يريد ، بيد أن الناس ينكرون هذه الحقيقة الخالدة ، فيزعمون أنى أنا الذى أبلغت نفسى هذه الغاية من التداعى والاضمحلال

أولئك هم يقولون أنى أسرفت فى التشاؤم الاسراف كله ، وانى تركت الهواجس والاوهام تغتالنى وتلقى بى الى التهلكة

أحقا أنا كما يزعم الناس ؟

أحقا ان هذا التشاؤم كان يهيمن على خطواتى ، فيوجهنى كيفما شاء ، وانه هو علة أخفاقى فى الحياة ، وهو الذى ساقنى أخيرا الى هذا المصير الذى أنا فيه ، أعد مابقى لى من حياتى بالساعات ، بل اللحظات ؟

أحقا أنى من هذا الضرب الذى يخط بيده مصيره ، ويخطو بقدمه الى حتفه ؟

احقا انى اسير هواجس اخلقها فى مخيلتى ، لأعكر بها صفو أيامى ، وانى أتصيد الاوهام فأبعثرها لتتعثر بها خطاى ؟

أحقا أنه كان فى مقدورى أن أمد لنفسى عمرا أطول مدى وأن اهيىء لى حياة أوفر جدوى ؟

تلك مزاعم الناس ومفترياتهم على ، ولعمرى أنهم لظالمون لى ، وانهم فى هذا الظلم لآثمون !

كيف يتاح لامرىء أن يزيد فى عمره المقسوم له يوما أو بعض يوم ؟ ألسنا طوع أقدار لا نملك منها الفرار ؟ وأين تلك الارادة التى تسمو الى تبديل ما رسمت لنا الاقدار ؟

ما زال الناس لهم ألسنة أطول من عقولهم ، فهم لايفتأون يلقون الكلام جزافا عليه مسحة من برقشة وزخرف ، وهو كالطبل الاجوف الرنان ، فليس فيه من معنى الاكذلك الهواء الذى يخرج من الطبل اذا مزقته ، لا يلبث أن يذهب مع الريح

ما للناس وما لى ؟

فليدعونى لما بى !

ولكن أنى للناس أن يتركونى ، ودأبهم منذ كانوا أن يقحم كل منهم نفسه فى حياة غيره ، فيفسد عليه أمره ، يدعى أنه يفهم من الدقائق والاسرار مالا يفهم سواه ، وانه وحده مالك ناصية الهداية والاصلاح ، وهو لذلك يتطوع باللوم ، ويتبرع بالنصح ، متخذا من هذا كله ذريعة الى استبطان دخائل الناس ، والتغلغل فيما يضمرون من شئون وشجون

لو عرف المرء قدر نفسه ، لاختزن نصائحه لنفسه ، وكف عن التدخل فيما لا يعنيه ... اذن لخلص الناس لانفسهم يدبرون أمورهم بمنجاة من التطفل والتدخل والتأثير ، ولعاشوا فى سكينة وطمأنينة ونعيم

أين هى الوساوس والاوهام التى يزعمون أنها تملك على سبيلى ، وتأخذ بخناقى ؟

انها حقائق ملموسة ، لا يتسرب اليها الشك من قريب

أو بعيد ، حقائق ناطقة لا يجحدها الا مكابر عنيد

تلك هى القهوة أمام عينى ... ذلك المشرب الذى يقوم بناؤه عن كثب من المنزل ، متجليا للناظر تحت الاضواء بأركانه وأبوابه واشيائه ...

أحقيقة هى القهوة أم وهم يصوغه الخيال ؟

انت تسألنى : وما الصلة بينى وبين القهوة التى هى ماثلة للعيون ؟

لا تعجل بسؤالك على ، فانى مجاهرك بكل ما تريد

ليس من عجب فى أن تكون بينى وبين القهـــوة رابطة وصلة ، فذلك أمر لا تأباه الطبيعة ، وان بدا غير مألوف

ثمة كائنات يرتبط بعضـها ببعض أوثق ارتباط ...

رب شيئين اتصل أحـــدهما بالآخر ، فكأنهما توأمان متلاصقان ، لا يفترقان فى ابتداء أو انتهاء ... همايزدهران معا ، ثم يضمحلان معا ، فاذا فنى أحدهما فنى الآخر على الاثر ... بينهما وصلة روحية يعقدها القدر ، فاذا هما يجريان فى آن واحد الى غاية واحدة

لا سبيل الى اكتناه الصلة الروحيـــة بين الكائنات المترابطة ، فان كنهها محجوب يعز على عقول البشر ، وما أعجز أفهامنا عن ان تدرك أسرار الروح ، بل ما أشد قصور الافهام البشرية عن ادراك الكثير من خفايا الطبيعة وسرائر الكون

وماذا يبلغ علمنا بتلك السرائر والخفايا ؟

هذا المخلوق البشرى أجهل مخلوقات الله بما حوله من طبائع الاشياء وحقائق الوجود ، ولكن له لسانا طويلا يعينه

على التبجح والادعاء ، وانه لفخور بهذا اللسان الذى يشقيه ويطيل همه ، ولو انصف هذا المخلوق التاعس لاستأصل لسانه من حلقومه ، ولعاش أخرس يختزن رأيه وتفكيره فى وليجة نفسه ، فيريح ويستريح ، ويسلم من أعقاب تلك الثرثرة الأرضية التى تجلب عليه الهزؤ والسخرية من جانب السماء . ولكأنى بالكائنات العليا تستمع الى هذيان ذلك الانسان الاحمق ، فتسترسل فى قهقهة تملأ الفضاء من بروق ورعود

أقولها جهرة لا لبس فيها ولا ارتياب ... ثمة رابطة روحية قوية وصلت بينى وبين هذه القهوة التى أسميها توأم نفسى ، وصنو عمرى ، فوحدت ما هو مقسوم لنا من مصير

يطيب لبعض رفقائى ان يعابثونى فيسألونى : اذا أجزنا لك ان تستوثق الصلات بين الكائنات الحية ، وان يتحدمالها من أقدار ، فكيف نجيز لك ما تزعم من الاتصال بين كائنين: حى وغير حى ، بينك وبين القهوة ؟ ... أنت انسان والقهوة جماد ، فأين روحها التى تزعم اتصالها بروحك ؟

ما أبين جهل السائلين بأسرار المادة الازلية !

انهم ليقفون عند الظواهر والقشور ، وانهم ليقيسون الحياة بأقيسة جامدة قاصرة ، لا تلائم ما يحيط بنا من عناصر الكون وجوهر الوجود ... الا ان كل شىء فى هذا العالم حى ، وان اختلفت صور الحياة ، وهل عرفنا نحن حقا ما الحياة ؟ ما كنهها ؟ ما تحديدها ؟ ما تعريفها على الوجه

الصحيح ؟ وهل وقفنا على حقيقة الروح التى تعمر الجسد، فتخلع عليه صبغة الحياة ؟ أليس ذلك كله ما برح الى اليوم وراء الغيب المستور تتيه فيه الأوهام ؟

كيف لا يكون كل شيء حيا ، وفى كل شيء نفحة من الله يكمن فيها سره العظيم ؟

انى لزعيم بأن هذه الأشياء التى نسميها الجمادات تنعم بحياة عامرة كما تنعم الكائنات الحية سواء بسواء ، فلكل من تلك الجمادات حياته الحافلة بالأعاجيب من طفولة ساذجة، الى شباب متوثب ، الى شيخوخة متداعية ، الى فناء فى عباب الكون الغـــامر ... وانى لزعيم بأن لكل من هذه الأشياء اقدارا وتصاريف من هبوط وصعود ، ومن نحوس وسعود ... ولو ارهفنا مشاعرنا لأحسسنا حياة هذه الكائنات من حولنا ، وتأثرها بنا ، وتأثيرها فينا ، ومشاركتها لنا ، وان كان يعوزها ما تميزنا به نحن من المنطق والكلام ، ولعل صمتها وسكونها أفصح من كل منطق وابلغ من كل كلام

لست وحدى صاحب هذا الرأى ، فليس منا الا من يؤمن به فى قلبه ، وان أنكره بلسانه

أناشدك الحق أن تعترف أنت بما تعرف من أمرك

اهمس لى بما فى نفسك : ألم تستشعر يوما رباطا يصل بينك وبين شيء من هذا الذى ندعوه الجماد ؟

اذكر أن كنت ناسيا : ألم تصاحبك طرفة من متاع بينك، او اداة مما تتخذ فى عملك ، او شيء مما تلبسه أو تتزين به ، من نحو زهرية أو دواة أو رباط رقبة ، فاذا ما أدركها

البلى ، ولم تجد بدا من أن تلقيها عنك ، أو تستبدل بها غيرها ، أحسست فى قرارة نفسك احساس من يودع رفيقا كريما أزمع الرحيل عنه ، ونزعت بك نازعة رقيقةمن حسرة وأسف ؟

ذلك القلم الرصاص الذى أصطنعه للكتابة ، فأصاحبه وقتا يقصر أو يطول ، انما هو رفيق عزيز تتصل حياتى بحياته ، وتندمج روحى فى روحه ، فتتخلق هذه الأفكار التى يخطها بدمه على القرطاس ، فاذا هى شيء حى له كيان ... وكلما بريت هذا القلم مرة ، ليهبنى لبابه ، فكأننى أقتطع من حياته ، وأنتقص من عمره ، وما أنا فى هذا بجان عليه ، ولا آثم فى حقه ، فذلك ما هيأته له الأقدار من تدبير ... كلانا يعيش الى حين ، وكلانا يفنى فى ميقات معلوم ... فلهذا القلم من الدنيا ايام مقسومة لا يستطيع أن يستقدم ساعة او يستأخر ، وما أنا فى موقفى منه وصنيعى معه الا يد القدر الخفى تعمل على اسلامه الى مصيره المحتوم

شد ما أنا شيق الى معرفة اليد المجهولة التى وكلت اليها الاقدار أن تدفع بى فى غمرات هذا العيش ، وأن تقتطع من حياتى جزءا بعد جزء ، وتنتقص من عمرى شيئا بعد شيء ، حتى تسلمنى الى النهاية التى ليس من بلوغها بد

لا غرو أن أحس لتلك القهوة التى أطل عليها وجودا وحياة ، وان أستشعر ما بينى وبينها من رباط روحى وثيق

لست أنسى ما تحدث به ابى فى شأن تلك القهوة ، وانا

يومئذ فى بواكير الصبا ، اذ كان يقول لى رزين اللهجة : انك يا بنى ولدت يوم ولدت هذه القهوة ، يوم فتحت أبوابها للرواد ، يوم استقبلت صخب الحياة ... وانه فى هذا اليوم أقيم مهرجانان فريدان ، أحدهما فى البيت لمولدك ،والآخر فى الشارع لمولد القهوة ، فتواصلت الزينات ، وتعانقت المصابيح ، وتجاوبت أصداء الالحان ، وترنح الشارع كله بنشوة النور والطرب والابتهاج

وهل أنسى ذلك الحادث الذى وقع يوم قضت أمى نحبها، وأنا ابن أعوام قصار ؟ لقد أصاب أحد اركان القهوة صدع شديد ، وكاد ينهار على الرواد ، فعجلوا اليه يقيمونه،وكان ذلك أول ما أشعرنى أن ثمة روحا سارية بيننا وبين هذه القهوة ، والا فما بال هذا الركن ينقض يوم ماتت أمى ، كأنما هما على موعد للفناء

كنت أرى أبى يلازم هذه القهوة ، فهو بالجلوس فيها شديد الولع ، حتى اذاعاد الينا فى البيت،سمعنا منه بعض ما دار فى القهوة من نوادر وأحداث ، يفيض فى الحديث عن جلسائه ، وعن ذلك النادل الذى يترسل فى ارجاء القهوة بألوان الأشربة والطلبات فى همة ونشاط ، فأصغى الى حديث أبى فى شغف وتشوق ، كأنما أنا أصغى الى روائع من القصص والاساطير

وأصبحت على مر الأيام من رواد القهوة ، اسمع وأرى ، وان لم اخط فيها خطوة ، اذ ألممت بكل ما يدور فيها من شئون ، وما يختلف اليها من ناس ، فلم يكن يعيينى أن أتخيلها وانا فى مكانى من البيت ، فأحس بأنى قد اقتعدت

فيها كرسى أبى على حاشية الطريق ، وانى أترشف القهوة أو الشاى ، واجتذب أنفاس « النارجيلة » من أنبوبها الثعبانى المديد

هكذا عرفت القهوة قبل أن تعرفنى ، وعشت فيها دون أن تطأها قدماى ، فأكننت لها بين الجوانح أعظم الحب ، واستشعرت لها فى نفسى سارية من الامن والانس والارتياح

ولما فارقت عهد الطفولة ، واستطعت أن أبارح الدار وحدى ، كان من همى أن أستبين القهوة التى ملأت على خيالى ، وجعلت أرقبها هنيهة فى تشوف ، فلم أجد كبير فرق بين ما رأيته منها رأى العين ، وما كنت أرسم لها من صورة فى الخاطر

ولبثت حينا لا علاقة بينى وبين القهوة الا علاقة عاشق يقنع من عشيقته بنظرات يتبادلانها على البعد ، فيناجيها وتناجيه ، ولقد كنت أحس كأن هذا البناء يهش لى ، ويرحب بى ، بل كأنه يعتب على فى احجامى عنه ، وتقصيرى فيما يجب له

وألحقنى أبى باحدى مدارس الحى ، وكانت القهوة فى طريق المدرسة ، فكنت أجوز بها ذهابا وجيئة ، أردد فيها ناظرى ، وأجد لذلك أنسا ومتعة

ويوما وأنا فى طريقى من المدرسة الى البيت ، ألفيت أبى فى القهوة يتخذ مجلسه ، فركضت اليه ، فأجلسنى بجواره يربت كتفى ، وجاء النادل بشاربه المنتفش ، وميدعته البيضاء تكسو صدره ، فما أسرع أن عرفته . وطلب اليه أبى

أن يحضر لى كوبا من شراب الليمون ، فاحتسيته سائغا لم أشرب أطيب منه مذاقا ولا أحلى

وتعودت بعد ذلك ان أختلف الى القهوة ، اشارك ابى بعض جلساته ، فتم التعارف فيها بينى وبين صاحبها ومن يجتمعون الى أبى من الرفاق والانداد

وكانت القهوة ملتقى الصفوة والسراة فى ذلك الحى ، عليها مهابة تحميها من ابتذال الواردين ممن هب ودب ، ولم يكن فى الحى سواها من الاندية ، الا تلك المشارب التى توصف بأنها مشارب بلدية ، يؤمها أخلاط من الناس

توافرت لتلك القهوة حقا أسباب الفخامة ، جوانبها فساح وضوءها ساطع ، وأثاثها فاخر ، وادواتها من نوع رفيع ، وأمامها ساحة رحيبة يصول فيها الهواء ويجول ... فاذا جاء الصيف ، طاب فيها سمر العشى ، فرأيت المناضد قد صفت دون الأبواب على جانب الطريق ، وغصت بها الساحة الرحيبة أو تكاد

يا له من منظر بهيج يتدفق من حيوية ومرح ، حين يتحلق الرواد حول هذه المناضد فى الأماسى ، كأنهم خلايا النحل ، وقد تناثرت فوق رءوسهم المصابيح الوهاجة ، والحاكى يبعث اليهم ألحان الغناء ، وطوائف الباعة يجوسون خلال الصفوف ليعرضوا ألوان السلع ، والمهرجون يبدون ألاعيبهم على دقات الطبـــول وأنغام الربابات ، والحواة بأعاجيبهم وطرائفهم يسترعون الأنظار ، والسابلة يتقاطرون للتفرج ، فكأن القهوة فى زينتها وزخرفها حفلة عرس لاتنتهى

فى ليلة او بضع ليال ، وانما هى مهرجان يتجدد فى كل ليلة، وتتعدد فيه أفانين المباهج والمسرات

وكانت أسرتنا فى عهد صباى ترتع فى بحبوحة من العيش فهذا أبى يمارس التجارة فى توفيق واقبال ، لا تنبو له همة ، ولا يكل من السعى ، وبذلك استطاعت الأسرة فى هذا الحى أن تبارى كرائم الاسر فى بسطة الجاه ، وان تظفر من الجيرة بالموفور من الاكبار والاعزاز

شرع الحى بعد ذلك يستقبل موجة طارئة من التغيير والتبديل ، فرأيت بعض المنازل المتواضعة المحيطة بالقهوة تسرع اليها يد الهدم ، وما هى الا أن تقوم مكانها أبنية سامقة ، وتقلصت الساحة الرحيبة حيال القهوة ، اذ شيدت فى أرجائها دور جديدة ، وكان المبنى الذى يقوم فوق القهوة قليل الطبقات ، يشغل صاحب القهوة شقة فيه ، فلما تعالت عليه الدور حواليه فقد روعته ، وبدا كأنه قزم هزيل بين العماليق

وأصابت أبى وعكة ألزمته فراشه ، وأوضح له الاطباء أن المرض فى القلب ، ونصحوا له الا يبذل من جهد ، فتخلف عن متجره ، ولم يكن فى مستطاعى ان أخلفه على المتجر ، اذ كنت قد التحقت باحدى الوظائف الحكومية ، فانقطع عن الأسرة رزق كبير ، واضطرت أن تجانب ما ألفت من ترف وان تأخذ بأسباب الاقتصاد فى الانفاق

واشتدت العلة بأبى ، فكان لا يبارح البيت الى القهوة الا فى الحين بعد الحين ، فآثرت ان أرعى فيها مكانه،وحرصت

على أن أشغله ، وأن اعتز به ، حتى أحتفظ لابى بمقعده الوثير

وفوجئت صباح يوم بأنى منقول الى أحد بلدان الصعيد، ولم أجد من يعيننى على الغاء هذا النقل ، فاستجبت له ، وقضيت فى الصعيد بضعة أشهر عانيت فيها أليم العذاب، فأنا هنالك وحيد لا أعرف لى من صاحب ولا خدين ، والبلد قصى معزول عن العالم الصاخب كأنى فيه حبيس ، وكان حنينى الى « القاهرة » يزداد بى يوما بعد يوم ، ولا يبرح مخيلتى ذلك الحى الحبيب الذى نشأت فيه ، وتلك القهوة الأنيسة التى تزينه

وكان يغرينى بالبقاء فى هذا البلد أنى فيه رئيس لاسلطان لاحد على ، وأن عملى فيه سبيل الى رقى سريع ، ولكن ضيقى بالوحدة ، وحنينى الى المدينة ، شوه فى عينى كل هذا الاغراء

وعرفنى فى تلك الفترة عميد أسرة ميسورة فى ذلك البلد، فرشحنى وسطاء الخير من جانبه أن أكون لابنته زوجا ، وأن يشركنى فى أعماله الكبيرة التى تدر عليه وافر المال . فلم أكترث لذلك كله ، وكيف لى أن أقيم فى هذا المنفى الموحش ؟ واذا كنت أوثر الخروج من الوظيفة الحكومية ، لاقتحام الاعمال الحرة ، فماذا يحوجنى الى الناس ، وذلك متجر أبى فى « القاهرة » ينادينى أن أقوم عليه ؟

ويوما تلقيت برقية تنبئنى بأن والدى على شفا خطر ، فتملكنى روع ، وهرعت من فورى الى القطار ، وما كدت أبلغ عتبة البيت حتى علمت أن أبى قد فارق الدنيا منذ

قليل ، فهالتنى الفاجعة ، ولكن مراسم الجنازة واقامةالمأتم أرادتنى على ان اتجلد ، وأن أضطلع بالامر كما ينبغى أن يكون

وحانت منى وانا فى غمرة هذا الحادث نظرة الى القهوة، فاذا هى مغلقة ، فتساءلت ، ما سر هذا الاغلاق ؟ فأعلمونى أن تنظيم العاصمة اقتضى شق شارع فى الحى ينتقص جانبا من مبنى القهوة ، وانه قد حان يوم التنفيذ ، فأحسست حيرة تستبد بى ... يالمصاب القهوة فى يوم المصاب بأبى !

وفى غد سمعت صوت المعول ينقض على جانب المبنى ، فكأنما كان يدق رأسى ، وكأنما كان صوته نواحا مع النائحات على فقيد الأسرة العزيز

وأسرع صاحب القهوة اليها يلم شعثها ، ويرم جوانبها ولكنها اصبحت بعد ذلك الترميم والاصلاح كئيبة الشكل، شائهة المنظر ، كأنما هى كسير بترت ساقاه ، فهو يسير متجهم الوجه ، متغضن الجبين ، يتحامل على عكازين من جذوع النخيل !

تعذر على أن أعود الى عملى فى الصعيد ، فكتبت الى الوزارة أرغب اليها فى نقلى الى «القاهرة» ، فلما لم تجب سؤلى قدمت اليها استقالتى ، ايثارا منى للعمل الحر فى متجر أبى

أترانى أخطأت فى هذا الصنيع ؟ لقد لامنى فيه كثير من الرفاق ، وحاول أن يثنينى عنه بعض ذوى القربى . ولكنى آنست الرشد فيما أنا معتزم ، فلم أعبأ بملام ، واصممت أذنى دون من يحاول تثبيط عزمى

لقد آن لى أن أنفذ ما تهفو اليه نفسى من برامج وخطط
أجدد ذكرى أبى فى التجارة ، وأحيا فى الأسرة حياته ، وأقو
فى القهوة مقامه ... لأحتذين مثاله ، فكأنه – بى – حى ل
يعصف به عاصف المنون

بيد أنى لم أوفق فى تحقيق تلك الامانى الرطاب ..
فالمتجر على درجة من التدهور بالغة ، ولم أملك أن أقيله
من عثرته ، وان استنقذه من يد الخسار . . . وكانت
الحيلة الاخيرة فى شأنه أن أبيعه لقاء عوض من المال
بأس به

ونصح لى الناصحون بالسعى الى استعادة وظيفتى فى
الحكومة ، فانتصحت وسعيت ، ولكن المسعى لم يثمر

وقد زاولت أشتاتا من الاعمال ، بغية الاطمئنان الى عمل
راتب فيه قرار ، فوقف النحس لى من حيثما اتلفت ، حتى
رضيت من الغنيمة بالاياب

ولم أجد بدا من أن أهادن السعى ، واسكن بعض وقت
قانعا بصبابة من المال اقتضيها كل شهر من حصة فى بيت
كانت لامى ، فآلت الى

وهكذا فقدت ما كنت آمله ... الا ذلك الركن الحبيب
فى القهوة الانيسة ، ركن أبى من قبل ، فهو المفزع والملاذ
فيه أقضى جل الوقت ، محتلا ذلك المقعد العظيم الذى نقل
على الايام بعض ما كان له من صلابة وقوة ، ومن تو
وجلال ... وكيف لا يصيب التغير هذا المقعد وقد تغ
فى القهوة كل شىء ، فهذه « النارجيلة » قد صدىء معدن
الصقيل ، وبلى أنبوبها الطويل ، وذلك النادل قد تقو

ظهره ، وشاب رأسه وبدت ميدعته على صدره كأنها رقعة فى ثوبه لا نظيفة ولا أنيقة

على أن القهوة ظلت على حالهـا مجمع النخبة من أهل الحى ، أولئك الرواد القدماء ، ولكن معظمهم لم يستعصموا على الكبر ، فاذا هم مضمحلون قد تبدلوا من نشاطهم رزانة ، ومن مرحهم وقارا وحشمة ، ومن جاههم خمولا وتخلفا ، ومن ثروتهم قناعة ورضا

وعز على القهوة ان تستجلب جديدا من الرواد ، فقد أصبحت حبيسة محدودة النطاق بين الابنية الرفيعة ، لا تكاد تنالها الابصار

وكنت أحاول فى مجلسى من القهوة أن أسرى عن نفسى ما وسعتنى التسرية ، أترشف الشاى ، واجتذب أنفاس « النارجيلة » وأدفع تلك الافكار السود التى تطوف بى بين الفينة والفينة ، مؤكدا لنفسى أن كل شىء طيب ، وان القناعة كنز لا يفنى ... !

وكثيرا ما كنت أستسلم ــ على الرغم منى ــ لما ينتابنى من هواجس ووساوس ، فأحس بقلبى يذوب من لوعة وأسى ... تلك هى أسرتنا العريقـــة المجيدة ، يصيبها التضعضع ، ويخمل ذكرها فى الحى ، وهأنذا أندم على أن افلتت من يدى تلك الزوجية الطيبة التى عرضت على فى الصعيد ، وعلى أنى أضعت عملى الحكومى الذى كان يكفل لى رقيا على الايام

أما ان أتزوج اليوم فهذا مالا يكون ... وكيف لى بالزواج وأنا أكابد مطالب الحياة ، ولا أجد من فضل المـال ما يقوم بجديد من التكاليف والنفقات ؟

وهذه القهوة التى بقيت لى ... ان حالها ليبلغ م
السوء مثل ما أعانيه ، كلانا كئيب يزداد على الزمن من تناقص
وانهيار ، ولا يعرف له من قرار

ما أقسى هذه الخواطر التى كانت تزدحم على رأسى و
فى القهوة وحيد ، فاذا أقبل أصدقاء القهوة الاوفياء له
ساعة الاصيل ، رأيتهم على شاكلتى يشكون كما أشكو
وان لم تنبس أفواههم بكلام

أولئك الذين كانوا بالامس يتباهون بالصحة والشباب
والاقبال ، لا أجد اليـوم منهم الا منهوكا عجلت اليـ
الشيخوخة ، أو زعزعه المرض ، أو تثاقلت عليـه هم
العيش . ليس منهم أحد الا وقد عبثت به خائنة الزمن
وأحدثت فيه مأتما بعد عرس

كنا جميعا نجلس متقاربين حول المناضد ، نتذاكر أ
الصفو والهناء من حياتنا الخالية ، اذ كانت القهوة تتبر
لقصادها ، وتعج بروادها ، كأنها غانية فى فتنة الشباب
وجدة الاهاب

يا لى من هذه الذكريات التى تتوارد على الآن ، وأنا على
فراشى مسجى ، أرتقب الحين المقدور

انها ذكريات تأخذ على مسارب الانفاس ، وكأنما هى
تنفث سمومها فى مهجتى ، فتكاد تعوق قلبى عن متابعة
الخفوق

رويدك أيها القلب الملتاع ...

أمهلنى دقائق حتى أتجرع بضع نقط من دواء ، فيـ
لك انعاش

ها قد تناولت الدواء ، وان قلبى ليعاود نبضاته فى انتظام ، وانى لاستشعر هدأة وسكينة ، وما أحسبها الا بوادر الراحة الكبرى ، راحة الصمت الى الابد

غدا يطبق الظلام على كيانى وعلى القهوة جميعا

غدا يهبط كلانا فى الهوة السحيقة التى لا مفلت منها لكائن وان تراخت به الايام

لزمت الدار منذ فترة لا أبرحها فى صبح أو مساء ، ولست فى هذا بعابث ، فأنا لاشــك مريض ، وأن مرضى ليضطرنى الى هذا الاعتكاف

لقد حرمت نفسى الذهاب الى ركنى الحبيب من القهوة الانيسة ، فانظر ماذا أعانى من وحشة وانقباض ؟!

شد ما هى عصيبة تلك الاوقات التى أقضيها فى الدار وحدى ، أزجى ما بقى لى من ساعات فى هذه الحياة ، واعدها ساعة بعد ساعة

هأنذا أتوارى عن أنظار الخلق اجمعين ، وأسدل على عينى ستارا كثيفا يحجب عنى كل شىء فى تلك الدنيـا الخداعة الغرور

لا أريد أن تكون لى صلة بمجتمع الناس

لا أريد ان تتناهى الى سمعى تلك الانباء المفزعة التى يتناقلونها فى شأن القهوة ، اذ يقولون أنها على وشــك الانتقاض ، وان كنت على الرغم من ذلك أشــد ما أكون تشوفا الى سماع هذه الانباء ، كما يتشوف السجين اليائس الى سماع الحكم عليه ، وان كان الحكم بالاعدام

أيتها القهوة العزيزة ... انى لاحبك وأرهبك فى آن

لكأن فيك روحا خفيا يعمل على أن يبيدنى ويدنى من الفناء كيانى

ليس عليك فى ذلك ملام ، فكل شىء فى هذا الكون يحمل رسالته من خير او شر ، ويؤديها بالطوع او بالكره ، ثم يأوى الى غيابة النسيان كأن لم يكن بالامس

لا ، أيتها القهـــوة العزيزة ... لا أريد أن أسمع من أخبارك شيئا بعد اليوم ، وكفى ما قاسيته من هذه الاخبار

لقد أصابتنى اول نوبة قلبية يوم علمت نبأ الحجز على متاعك ، وفاء للدين الذى تراكم على كاهلك ، ومنذ ذلك اليوم وأنا طريح فراشى لا أغادر الدار

واليوم أعلم أن موعد البيع صبيحة غد ، وأن المبنى كله سيهدم عما قليل ، ليقوم على أرضه بناء يطاول السحاب جديد

وأحر قلباه ... كيف تتابعت الاحداث على هذا النحو حتى أسلمتنا الى ذلك المصير ؟

هذه القهوة استطاعت أن تغالب ما صادفها من رزايا ومحن ، فاجتازت سنوات الحرب فى صـــبر واحتمال وسلمت لنا تواتينا بالسلوة والمتعة والايناس ، حتى ظننا أن الدهر قد هادننا فى شأنها ، وانه سيبقى علينا وعليها فما لهذا الامل الذى داعب نفوسنا تقضى عليه تلك الفئة الناجمة التى اطلقوا عليها لقب : « أغنياء الحرب » ؟!

لقد ظهر بيننا فجأة هؤلاء الاغفال المتبجحون ، فعكروا صفو هذه البيئة الطيبة الهادئة ، وانبعثوا يقلبون الاوضاع ويسلبوننا أعز ما نملك بما توافر لهم من أموال غزار

لكأنهم غزاة واغلون ، يزحموننا على الامكنة الرفيعة فى المجتمع ، فيقصوننا عنها فى سطوة ، ويحتلونها دوننا فى جرأة ، وانهم ليتقدمون الصفوف ليكونوا سادة المجتمع الحديث فى الثروة والجاه والسلطان

وها نحن اولاء ، أبناء المجد التالد والعزة القعساء ، لا نملك ازاءهم الا أن نتنحى لهم عن الطريق ، وكيف ندافعهم وقد بلغ بنا الهزال كل مبلغ ، وأصبحنا معهم فقراء لا نستطيع مكاثرتهم فيما تمتلىء به أيديهم من فضة وذهب !

لقد كنا منذ عهد قريب نشهد هذا الصنف العجيب من أغنياء الحرب ، وهم يضربون فى الأرض ، نافخين أوداجهم من الشبع ، مصعرين خدودهم من الكبرياء ، متفاخرين بالحلل القشيبة والحلى الغالية والسيارات الفارهة ، مزهوين بأنهم ينثرون المال يمنة ويسرة ، كأنهم يمتحون من نبع لا يغيض

وما أسرع أن رأيناهم يتتبعون مواقع الارض فى كل ناحية ، فاذا هم يشيدون عليها الابنية الشاهقة بأيدى ساحرين ، كأنهم يغرسون فى الارض بذورا لا تلبث أن تكون أشجارا فينانة فى لمح البصر

كان منهم نفر يحدجون القهوة فى مغداهم ومراحهم بالنظر الشزر ، يستهزئون بها وبمن يؤمها من الرواد ، ويتناقلون عنها وعن روادها ألوانا من النكات والاضاحيك فكنا نسخر منهم فى ترفع وازدراء

ماذا فى القهوة يستوجب هذا الاستنكار ؟

لتكن ضئيلة الرقعة ، فحسبها أنها تتسع لروادها

الكرام المنبت ، ولتكن هزيلة الاضواء ، فانها لأبهج فى عيون روادها من كل ضــوء ساطع وهاج ، وليكن النــادل فيها قد تغضن وجهه ، وتهدل شاربه ، وبليت ميدعته ، فانه مازال بقلبه الكبير وروحه الانيس يفيض على الرواد ما يحبون من رضا وصفاء

هذا مقعدى الخيزرانى قد تقوضت أركانه ، ولم يستطع أن يقوم بنفسه ، فأسندته الى الحائط يدعمه ، ولكنه مابرح رفيقى الذى أحس به يبسط لى ذراعيه ، ويفسح لى من جوانبه ، فأطمئن فى جلوسى عليه اطمئنانا لا يتيحه لى سواه من وثير المقاعد

ليت هذا النفر من أغنياء الحرب قد اقتصر على النظر الى القهوة بعين الازراء ، واكتفى بالنكات يصبها عليها وعلى روادها الكرام ، ولكنه أبى ألا أن يقضى على القهوة وعلينا فى غير هوادة ولا مرحمة

غدا تباع القهوة استيفاء لمـا ركبها من دين

غدا يمزق متاعها شر ممزق ... ولن يكون مصير المقعد الحبيب الذى صافانى وصافيته زمانا الا أن يذهب طعمة للحريق !

غدا يهوى المعول على مبنى القهوة ، فتنهار جنباته تحت الضربات الثقال ، طاوية معها صفحة من روائع الذكريات

غدا ينسدل الستار على حياة ذلك المكان العزيز

وغدا أيضا يمسك قلبى عن خفوقه ، ليطوى صفحة أيامى فى هذا الوجود !

ياسادة ياكرام

القلب وان كان قاسيا يحن الى المغفرة ، الى العفو عن الخطيئة ، وهو فى ذلك يسمو بعاطفته ، حتى يصبح جديرا باسم ((الانسان))

على مصطبة رحيبة من دار متواضعة ، فى قرية « كفر النعام » جلس الشيخ « صفوان » يصيب فطوره مع صديقه الحميم الشيخ « موهوب » ...

وكان الشيخ « صفوان » فى هذا الصباح يحس بالهم يداخله ، فهو حزين النفس ، مطرق الرأس ، نظراته قلقة لا تعرف لها من هدف ، تراه وقد انبسطت يده الى صحفة الطعام ليتناول منها مضغة يدسها فى فمه ، فكأنك ترى آلة تتحرك دون أن تعى

وبينما هو كذلك ، اذ أقبلت عليه خادمته العجوز « أم الخير » ، وما لبثت أن مالت عليه تلقى فى أذنه كلمات ، فلما سمعها الرجل اهتز فى مجلسه ، وبرقت عيناه ، وتطاول بعنقه يقول جهير الصوت :

ـ ابنتى «حليمة» عادت ؟ ... لا أعرف لى ابنة بهذا الاسم ... اليك عنى يا امرأة ... اغربى عن وجهى والا حطمت عصاى فوق رأسك ..

وانسرحت يده تتلمس العصا حواليه ، فأسرعت المرأة تمضى عنه فى خشية وفزع

ولبث الرجل مأخوذا يطبق عليه صمت ، وقد رجع بمخيلته القهقرى سنوات يعرض من ماضيه تلك الصفحة المخزية النكراء ، صفحة ابنته وقد زلت زلتها الكبرى فألحقت بالاسرة عار الابد ... تفريط فى العرض ، ووراءه حمل أثيم!

كان هــذا منذ سنين عشر ، وابنته يومئذ لم تجاوز السادســة عشرة ، فغــادرت القــرية باثمها الى غــير رجعة ، وخلفت له ذكرى مريرة ، طالمــا شقى بها ولاقى منها الويل والثبور

وأزهرت عين الشيخ « صفوان » ، واذا هو يلتفت الى جليسه الشيخ « موهوب » يقول له متهدج الصــوت ، ملوحا بيده :

– أى ابنة تلك التى عادت ؟ ان ابنتى ماتت منذ زمان ... لم يعد لها فى الارض وجود !

وحاول الشيخ «موهوب» أن يسكن من روع صديقه ، وأن يرد اليه طمأنينة نفسه ، حتى يستأنف طعامه ، فكان الشيخ « صفوان » يلوك اللقمة فى فمه ولا يكاد يسيغها ، وهو ناكس الرأس ، خافض البصر

ولم يجد الشــيخ « موهوب » بدا من أن ينصرف عن المجلس ، تاركا صديقه على مصطبته ، لعل السكينة تراجعه فى خلوته ، فبقى الشيخ « صفوان » وحده طويلا تعبث به الذكريات ، حتى ألفى عينيه تجودان بالدمع

وضرب الرجل يده فى صدره يخرج مصحفه ، وفتحه أمامه يريد أن يقرأ ، فاذا هو شارد النظرات لا يستطيع الى القراءة من سبيل

وتراءت « أم الخير » على مقربة من المصطبة ، وهى تتدانى من الشيخ « صفوان » على تخوف وحذر ، حتى أخذت بقدمه تدلكها فى سكون ، وأحس الرجل وجودها فصاح بها يقول :

ـ اياك أن تحدثينى عنها أى حديث ...
فتشبثت المرأة بعباءته مستعبرة تقول :
ـ رحماك يا سيدى رحماك !
ـ لا أعرف شيئا اسمه الرحمة ...
وبدا الرجل كأنما اكتسى وجهه باللهب ، وأوصاله ترتجف ، فاستأنفت المرأة تقول :
ـ انها فى دارى ترتقب اذنك ، وترجو عفوك ، ولولا خشيتها منك لقدمت عليك ، تعفر وجهها بتراب رجليك
فانحنى الرجل عليها يدفعها بقوة ، وهو يقول :
ـ انصرفى عنى يا امرأة ...
ـ انها تبغى أن تراك قبل أن تموت ... انها فى النزع الاخير !
ـ فلتذهب الى الجحيم ...
ـ لقد جاءتك نادمة تائبة تأمل أن تموت بين ذراعيك
وانطلق الرجل ثائرا كالبركان لا يعرف لخطواته قصدا ولا وجهة ، والهواء يلفحه كأنه أنفاس موقد يتضرم ...
وكان يخيل اليه فى أثناء سيره أن هتفات تحيط بسمعه قائلة له :
ـ « حليمة » عادت ... « حليمة » عادت ...
وأن هذه الهتفات تتوافق هى وخفقات قدميه على ايقاع واحد ، وأحس ان تلك الجملة تشيع حواليه ، ويتسع نطاقها دونه ، فسمعها من حوافر الدواب ، ومن حفيف الشجر ، ومن كل ذى حركة او نأمة فى عرض الطريق ...

فاذا مر به أحد من الناس ، فألقى عليه السلام ، أوكلمه فى بعض الامر ، حسبه يردد تلك الجملة التى تحاصره ...

وكذلك انقلبت الدنيا بأسرها أفواها تنهى اليه عودة ابنته « حليمة » ، فهو يسمع النبأ رنينا فى هيكل جسمه، وهو يحسه أصداء تتجاوب بها جوانحه !

وظل الرجل يتخبط فى مسيره على غير هدى ، وفى وجهه علائم قلق واضطراب تثير الاشفاق ، وعن له أن يتوخى القهوة ، عسى أن يسرى عن نفسه بالجلوس فيها بعض ساعة ، فحث خطاه اليها ، كأنه منها على موعد يخشى ان يفوته ، فلما بلغها طلب قدحا من القهوة ، وقصبة من الدخان ، ولكنه لم يجد للقهوة مذاقا طيبا يرضاه ، وكاد دخان القصبة يخنق أنفاسه ، فأنحى على غلام القهوة تأنيبا وملامة ، ورمى اليه بالقدح وبالقصبة فى سخط وحنق ، ونهض من فوره يطلب الفرار

وانتهى به السير الى رأس الترعة ، فاقتعد حافتها يتأمل فى مائها الرقراق ... فاذا هو يذكر حياة ابنته فى القرية ، كيف كانت فى عصر الطفولة ؟ كيف كان يحملها معه الى السوق ؟ كيف كان يجلس اليها ليحكى لها طرائف القصص ؟ كيف كان يلحظ من شأنها أنها غريرة طيبة القلب لا تعرف الدهاء والكيد

ويل للناس من الناس !

لو كانت « حليمة » من أولئك البنات اللواتى يعرفن اللؤم والخبث ، لما استطاع أحد من الاوغاد أن يخدعها وان يريدها على غير ما يجمل بها أن تفعل ، ولكنها وقعت

فريسة الخديعة والمكر ، وهى بريئة النفس ، سليمة النية، مطواع !

انها توشك أن تلفظ النفس الاخير ، وانها لترجع تائبة نادمة تبغى أن تموت بين ذراعى أبيها الحنون ، وانها الآن فى بيت « أم الخير » تنتظر من الاب أن يعطف عليها بنظرة .. بذلك تحدثت « أم الخير » الى سيدها الشيخ«صفوان» لتقنعه بأن ينثنى عن عزمه ، وان يغفر لابنته ماسلف ، ولكن هيهات ! ...

وسلك الرجل طريقه الى بيته ، ليسكن اليه فى ساعة الظهيرة ، بيد أنه ألفى نفسه على غير قصد حيال بيت آخر يعرفه حق المعرفة ... واذا هو بالباب مقيد الخطو لا يستطيع البراح

وأراد أن يقول :

ـ أين أنت يا « أم الخير » ؟

فخانه صوته ، واذا هو يصرخ من أعماق قلبه :

ـ اين انت يا « حليمة » ؟

وسمع صوتا ضعيفا يجيبه :

ـ أنا هنا يا أبى !

فاقتحم الباب وهو يركض ، ووضح له شبح هزيل على الارض ملقى ، فارتمى عليه يناجيه :

ـ « حليمة » يابنتى ... « حليمة » يا حبيبتى !

واشترك كلاهما فى بكاء وانتحاب ، ثم أخذ الرجل ابنته المحتضرة فى حضنه ، فاستشعرت هدوءا يغمر نفسها الحيرى ، ودبت فى جسمها الحياة من جديد ، فتعلقت بصدر

أبيها كأنما تخشى أن تفقده من بعد ، وظلا معا صامتين يتركان لروحيهما أن تتلاقيا وأن تتصافيا فى غير جلبة ولا ضجيج ، وأسبل كلاهما عينيه ، فاستخفى من حوليهما كل شىء ، وانسل بهما الزمن فترة ، يمسح عنهما ما خلفته لهما الايام من خزى وألم ، ويردهما الى عهد نضر كله بشاشة وبهاء

وهمهم الاب يقول :

ـ سنذهب معا الى السوق لننتقى من الحلوى ما تحبين ... هاك الجاموسة فخذى زمامها وقوديها الى حيث تشائين !

فأجابت « حليمة » فى صوت كأنه خطرات النسيم :

ـ السوق ... الحلوى ... الجاموسة !

ثم غشيها الصمت لحظة . وما لبثت أن عادت تهمهم :

ـ هلا رويت لى يا أبى قصة من قصصك المحببة ... !

وتراخت اوصال الاب وابنته ، وملكت عينيهما غفوة حالمة ... واذا الرجل يقول :

ـ ... كان ما كان ، يا سادة يا كرام ، لا يحلو الحديث الا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ... كان الشاطر «حسن» يحب « ست الحسن والجمال » ... !

وقبيل مغرب الشمس ، خرجت من بيت « أم الخير » جنازة ضئيلة ، متخذة فى سيرها الى ربوة المقابر طريقا غير مألوف ، حتى لا تتناهبها العيون !

وعاد الشيخ «صفوان» الى داره فى دجوة الليل ، بعد أن نفض يديه من تراب ابنته ، وهو يردد :

ـ سبحان الحى الذى لا يموت

وفى الظهيرة من غد ، نودى لصلاة الجمعة ، فقصد الشيخ «صفوان» مسجد القرية ليؤدى الصلاة مع الناس ، وصعد الخطيب منبر المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم انبرى فى خطبته يحث المؤمنين والمؤمنات على الصون والعفاف ، ويذكر ما أعد الله للمفرطين والمفرطات فى الاعراض من أنكال وجحيم ، وطعام ذى غصة وعذاب أليم ...

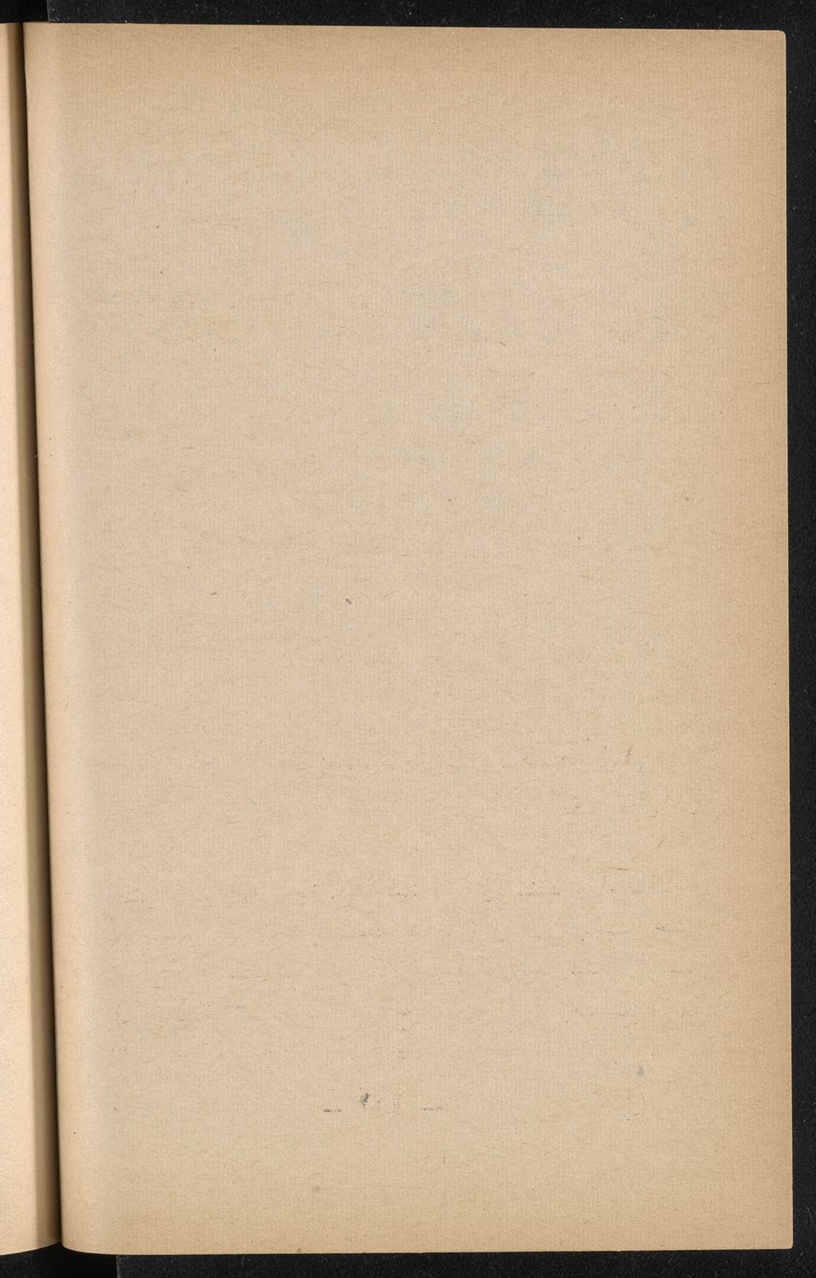
وهنا التهبت مسامع الشيخ «صفوان» وهو ينصت للخطيب المتحمس ، وألفى نفسه يصيح بأعلى صوته :

ـ ليس لك أيها الرجل أن تتحكم فى مصير الناس .. انك لا تدرى من العاصى ومن المطيع ... الله وحده يعلم السرائر وما تخفى القلوب ...

فأمسك الخطيب عن الكلام يتبين من الصائح ؟ واجتمع الناس على الرجل يسكتونه ، فراح يتابع قوله محتد النبرات :

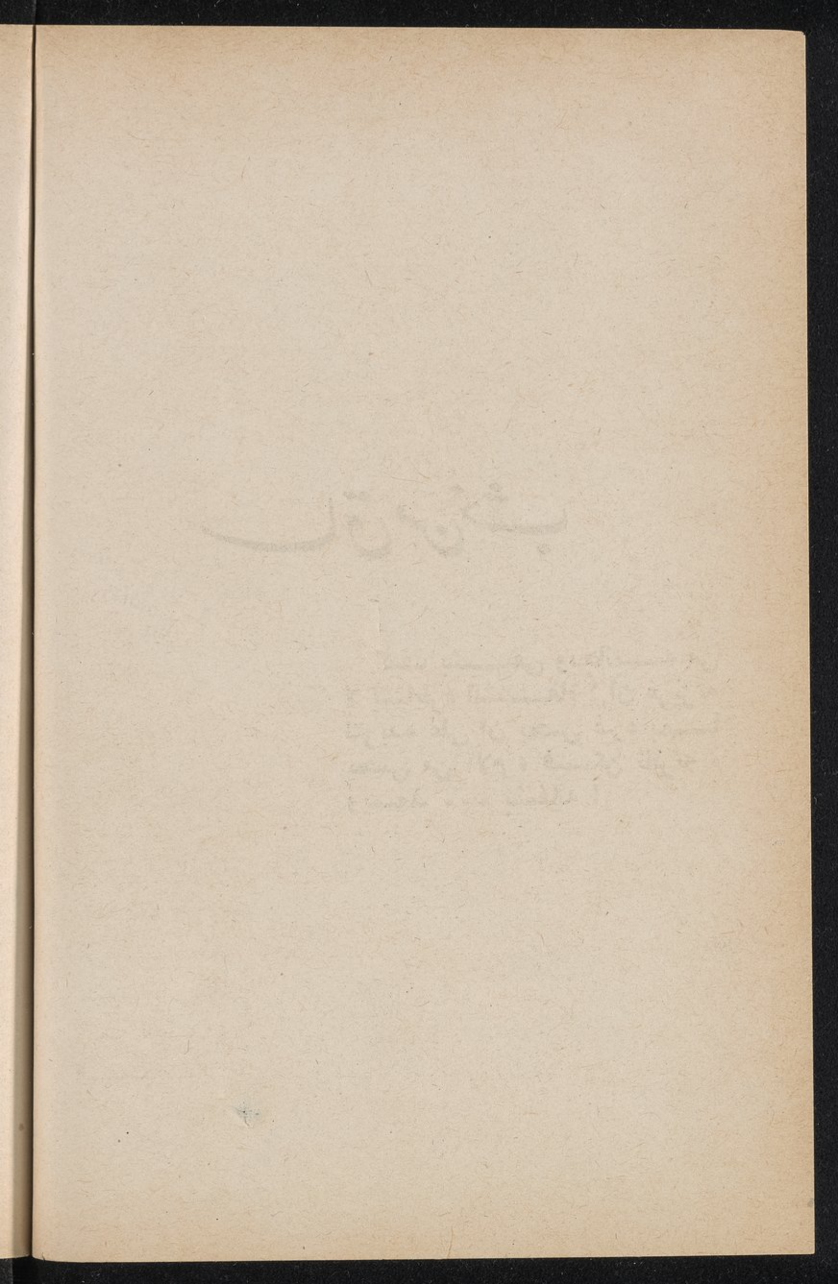
ـ الناس كلهم منافقون .. لا أريد أن يتكلم عن ابنتى أحد ... انها طاهرة الذيل ، طيبة القلب ... لقد ماتت بين يدى تائبة ..

واختلط منطقه ، وزاغت عيناه ، وتشنجت اوصاله ، فدفعه الناس الى باب المسجد دفعا ، وما أن بلغه حتى خارت قواه ، فسقط على الارض يهذى ، وعند رأسه صديقه الشيخ «موهوب» يروح له وجهه ، ويمسح الزبد الذى تسايل على جوانب فمه ...



ساق من خشب

كيف يشقى وبجانبه من لا يشاطره الشقاء ؟ ان غريزته لتريده على ان يحس غيره بما يحس من آلام ، فتسكن ثائرته ، ويسعد ... بشقائه !



في حى « الحمزاوى » كان يقوم المنزل الصغير المتواضع الذى أمضيت فيه عهد الطفولة والشباب ، وكان قبالة المنزل حانوت لتجليد الكتب ، نشأت أراه فى شكله العتيق عليه غبرة ، وقد كسيت وجهته كلها بأبواب كثيرة النوافذ معتمة الزجاج ، على أن أغلب الواحها الزجاجية قد تحطم فاستبدل به الورق المقوى

وأذكر أنى كنت بادىء بدء ــ وأنا طفل ــ أرهب هذا الحانوت أيما رهبة ، ولا أخاله الا جبا تؤمه العفاريت ... اذ كان ظاهره أقتم عليه سيماء العبوس ، وكان مدخله حالك الظلمة ، لا أتبين فيه الا أشباحا تتراقص فى جيئة وذهوب

بيد أنى سكنت على مر الايام الى مرآه ، وتعرفت من يعمل فيه

هما اثنان : رجل وغلام ...

أما الرجل فهو صاحب الحانوت ، اسمه «محمد عوف» له قامة مديدة ممتلئة ، وصدر عريض مفرطح ، وذراعان مفتولان ، ووجه مستدير مشرب بحمرة ، وشارب فاحم غزير ... على هذه الصفة رأيته أول مرة ، وظللت أراه عليها خلال الفترة التى قضيتها فى الحى معه ، بل لقد كنت أجده يزداد على السنين من فتوة وقوة ، ويتوهج فى عينيه ذلك البريق السحرى الذى يسلطه على الناس ،

فيرهبون سطوته ، ويخشعون لسلطانه

وأما الغلام فاسمه « عبد العزيز » وهو صبى صاحب الحانوت ، يساعده فى عمله ، ويؤدى له مطالبه ، وكان فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، ولكن من يراه فى ضموره وقصر قامته يحسبه لم يبلغ عامه العاشر . وكان متطاول الوجه ، كاسف اللون ، ذاهل العين ، موصول الصمت .. اذا مشى أمامك مشيته الراتبة ما شككت لحظة فى أنه دمية من الخشب تتحرك بلولب ... وقد نشأ هذا الغلام يتيما فاقد الرعاية ، فكفله المعلم « عوف » فى بيته ، وعلمه صناعة التجليد فى حانوته ، والزمه ظله كالآلة الطيعة يحركها كيفما شاء دون عناء

وتم بينى وبين الغلام تعارف ، اذ كان يجلس بعض وقت على دكة خشبية بجانب الحانوت يستريح ، فاذا صادفته كذلك فى أوبتى عصرا من المدرسة ، ذهبت اليه ، فشاركته مجلسه ، وجاذبته القول ، وكنت أسأله عن شأنه فيوجز الجواب

ولما استوثقت الصداقة بينى وبينه ، جعلنا نتهادى مختلف الاشياء ، أشركه فيما أشترى من صنوف الحلوى أو المرطبات ، ويقدم هو الى بعض دفاتر صغيرة يصنعها بنفسه من قصاصات الورق التى تتجمع فى الحانوت من بقايا أعمال التجليد ، وكثيرا ما كان يطبع اسمى بماء الذهب على بعض كتبى المدرسية

وبينما انا خارج من منزلى بكرة يوم التمس الطريق الى المدرسة ، اذ ألفيت « عبد العزيز » فى منصرفه من

الحانوت ، على غير عادته ، وهو ممتقع الوجه ، كليل النظر يكسو عينيه ذبول ... فعجبت من أمره ودنوت منه أسأله :

ـ ماذا كنت تصنع فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

فأجابنى شارد النظرات ، كأنه فى أعقاب حلم :

ـ لقد قضيت ليلتى فى الحانوت ؟

ـ وحدك ؟

ـ نعم

ـ فى هذا الجب المخوف ؟

ـ نعم .. وبلا نور !

ـ ولم سجنت نفسك هذا السجن الفظيع !

ـ بذلك أمرنى معلمى

ـ ألم تخف ؟

ـ لقد كلفنى أن أقضى الليل ساهرا ففعلت

ـ ولماذا ؟

فأطرق يهمهم :

ـ عاقبنى على اهمال منسوب الى

فحاولت أن استزيده ، فاقتضب الكلام ، كأنه ليس عنده ما يقال ...

وتزايل عنى ما كنت استشعره من فزع لهذا الحانوت ، فقد دخلته أزور صديقى فيه أثناء مغيب معلمه عنه ،وكانت الظلمة لا تنجاب عن أرجائه حتى فى رائعة النهار ، وكنت أتخذ مجلسى قريبا من الباب على مقعد خشبى انظر الى « عبد العزيز » وهو يعمل ، وأتحدث اليه فى الفينة بعد الفينة ، فيبادلنى الحديث فى اختصار واقتصار ، على حين

يرتب الكتب على منضدة التجليد ، ثم ينزع عن كل كتاب غلافه ، ويخيطه على اسلوب فنى اشبه بالنسج على المنوال

وكانت نفسى تهتاج اذا رأيته يعمد الى قص أطراف الكتب بالآلة القاطعة ، وهى ذات شفرتين عريضتين مسنونتين تعملان فى أطراف الكتب ما تعمل المقصلة فى رقاب المجرمين ولشد ما كنت ارهب هذه الآلة واتنكب عن مكانها فى الحانوت ويوما قلت « لعبد العزيز » :

ــ الا تخشى على نفسك من هذه الآلة القاطعة ؟

فعبرت فمه ابتسامة ، وأجاب ويده تلاطف حديدها :

ــ وفيم الخوف ؟ انها صديقتى التى لا تؤذينى

ــ وماذا يكون الامر اذا انطبق حداها على يد انسان ؟

ــ لا ريب أنها تقطعها فى الحال

ــ أحدث شيء من هذا لاحد من العمال ؟

ــ ربما حدث .. فى النادر !

وجاء يوم عرفت فيه المعلم « محمد عوف » نفسه صاحب الحانوت ، فأغرانى اول الامر بتجليد بعض الكتب المدرسية ، ثم جعل يتولى تجليد ما عندى من كتب روائية وكنت بالقصص مشغوفا أيما شغف ، ولما نضب هذا المعين لم أجد الا الدفاتر والكراسات أكل اليه تجليدها ، والرجل يواصل اغراءه لى ، وكنت لا أستطيع لنفوذ نظراته وخلابة أقواله ان أرد له مطلبا ، أو أعصى له نصحا ...

وألفت بعد ذلك ألا آنس بالكتاب اذا كان غير مجلد ، وأصبح ذلك هوسا تمكن من نفسى واستحكم ، ومازلت حتى الساعة أشعر بشيء من سلطانه على

ولزام أن أنصف المعلم « عوف » فأشهد له بالنبوغ فى فن التجليد ، اذ كانت له فيه أساليب مبتكرة تدل على شدة حذق وصفاء ذوق ، ولذلك اتصلت معاملتى له ، فلم أتركه الى غيره ، حتى بعد أن اتممت الدراسة ، وخرجت الى غمرات الحياة

وكان مبلغ علمى أن المعلم « عوف » يتخذ له مأوى فى منزل صغير عن كثب من الحانوت ، لا يساكنه فى مأواه الا صبيه « عبد العزيز » ، اذ توفيت زوجته منذ أعوام ، ولم يكن له منها ولا من غيرها عقب ، فعاش فردا مع صبيه لا يكاد يزور قريبا أو يزوره قريب

وطوحت بى ضرورة العمل الى « الاسكندرية » ، فنقلت اليها أسرتى ، ومكثت هنالك زهاء خمس من السنين ، لم أهبط خلالها « القاهرة » مرة

وقدر لى بعد ذلك أن أعود ، فاتخذت فى « القاهرة » مسكنا فى غير الحى الذى شببت فيه ، ولكن سرعان ما خطر لى أن أقصد ذلك الحى القديم ، وأن أزور فيه صديقى المعلم « عوف » وصبيه « عبد العزيز » ، وأن أحمل معى مجموعة من الكتب للتجليد ، وما أن طرقت الحانوت حتى لمحت « عبد العزيز » وحده فيه ، وقد بدت عليه سيماء الرجولة فنبت له شارب ، بيد أنه ظل على حاله ضامر العود ، مهزول الاوصال ، جهم السحنة ، فلما رآنى خطا نحوى خطواته الآلية ، يمد الى يده الصلبة ، وعلى فمه ابتسامة باردة ، فهششت له ، وأقبلت عليه أصافحه ، وصحت به :

ـ أمازلت فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

ـ وهل خطر ببالك يا سيدى أن أتركه ؟
ـ حسبتك أصبحت معلما له حانوت وصبيان
ففغر فاه مدهوشا يقول :
ـ انا أصبح صاحب حانوت ؟ انا اترك معلمى ؟
ـ أتظل صبيا طول عمرك ؟
فقبل يده ظهرا وبطنا ، وقال :
ـ الحمد لله على كل حال !
فقلت له وأنا أبعثر نظراتى فى الحانوت :
ـ وأين المعلم « عوف » ؟
فاكتسى وجهه بسحابة كدراء ، وأطرق لايجيب ، فعجبت من أمره ، وقلت أسأل :
ـ ماذا ، لا قدر الله ؟
فرفع « عبد العزيز » رأسه ، وقطرات الدمع تحبو على خديه ، واجابنى مختنق الصوت :
ـ انه مريض يا سيدى
ـ وهل مرضه مميت ؟
ـ كلا ...
ـ اذن فيم بكاؤك ؟
فدنا منى وأخذ بيدى يشد عليها وهو يهمس :
ـ لقد اصبح كسيحا يا سيدى ...
ـ كسيحا ؟ .. وكيف ؟
ـ سقط من « الترام » سقطة بترت ساقيه !
ـ يا للهول !
وأمسكت عن الكلام لحظات ، وأنا أفكر فى شأن هذا الرجل

المنكود ، وفيما يعانيه الآن من ذلة وانكسار ، وقد كان ذلك الجبار الذى يبث الهيبة حوله أينما سار

ورفعت بصرى الى « عبد العزيز » أسأله محزون النبرات :

ـ اما زال يسكن فى منزله القريب من الحانوت ؟

ـ مازال يا سيدى ...

ـ أريد أن أزوره .. هل لك أن ترافقنى ؟

ـ أنا طوع أمرك

وخرجنا من الحانوت ، وتوخينا منزل المعلم « عوف » ، يتقدمنى « عبد العزيز » ليدلنى على الطريق ، فما اجتزنا الباب حتى صعدنا سلما من خشب ، أفضى بنا الى ردهة صغيرة معتمة تنبعث منها رائحة تزكم الانف ، ولم أكد أتخطى عتبة القاعة حتى انتهى الينا أنين كأنه زمزمة الاسد الحبيس ، فألفيتنى أمسك عن السير ، وقد تمشت فى نفسى رهبة ، وملت على مرافقى أهمس :

ـ هو ذلك الذى يتوجع ؟ ...

فأومأ برأسه ، وساقنى الى مخدع معلمه ، فاذا الرجل مستلق على حشية عريضة ، وقد أحاطت به وسائد ، فتقدمت اليه أصافحه وأقول :

ـ الحمد لله على سلامتك يا معلم ..

فلاطف يدى يشكر لى ، وفمه ترتسم عليه ابتسامة كئيبة ، وغمغم خشن الصوت :

ـ الحمد لله .. الحمد لله !

وكانت الحجرة ساطعة الضوء ، فاستطعت أن أرى الرجل

حق الرؤية ، وأن ألاحظ ما طرأ من تغيير عليه ، لقد ضخم جسمانه ، وترهل جلده ، وبدت لحيته كثة مهوشة . ولكنه مع ذلك متورد الوجه ، بارز الصدر ، مفتول الذراعين ، أما عيناه فهما على نحو ما كانتا من قبل ، بل لقد ازدادت مقلتاهما من توقد واضطرام

ولبث الرجل يرحب بى ، ويسألنى عن مغيبى ، ثم انطلق يقص على ما كان من نبأ الحادث الذى أودى بساقيه ، وكان « عبد العزيز » فى أثناء ذلك قد صنع القهوة وجاء بها الى ، ولما فرغ المعلم من حديث الساقين استأنف يشكو ويتذمر ، فيقول :

ـ لقد أصبحت لا أطيق الحياة .. انى فى سجن كريه أمضى ما بقى لى من أيام ... لماذا لم يقض « الترام » على كل القضاء ؟ ...

ورمى الرجل بنظرة من عينيه الى « عبد العزيز » وهو يشير اليه فى عنف ، فرأيت الفتى ينتفض من فزع ، ويحنى رأسه فى خضوع ، فجعل المعلم يقول :

ـ وهذا .. هذا الواقف امامك الذى تعبت فى تربيته وتعليمه حتى صار رجلا يفخر بنفسه وبصنعته ، هـذا الذى ظننته ابنا لى يعرف حق أبوتى ، أو قريبا لى يعرف واجب القربى ... لقد انكشفت حقيقته أمامى ، فاذا هو جاحد فضلى عليه ، منكر جميلى له .. أقسم أنه مسرور بما أصابنى ، وانى لاقرأ السرور فى عينيه .. انه يرقبنى وأنا أتنقل من مخدعى أزحف على يدى ، فتمتلىء نفسه شماتة بى ، وكأنى أسمعه يقول : « ازحف على يديك ،

فقد أصبحت بلا ساقين ! » ... ويحك من دنىء يا « عبد العزيز » ... ولكن لماذا لاتتعالى على ، ولكساقان سليمتان لعلك تفكر فى أن تركلنى بهما ؟ ... تعال افعل ، ولا حرج عليك !.. ألست الآمر الناهى فىمنزلى ؟ ألست سجانى ؟ تعال اقذف بى من هذه النافذة ، فقد أصبحت لا أملك عن نفسى دفعا ... وماذا أستطيع وانا مبتور الساقين ؟ انى لاجدك شديد التباهى بنفسك يا محدث النعمة ، وأراك تسير مختالا كأنك تقول لى : « أين أنت ايها الكسيح منى أنا الصحيح ؟ رأسك الى الارض وأنت زاحف . ورأسى الى العلاء وأنا أسير ! » ...

ولبث فمه يتدفق بهذا التأنيب والتقريع ، وأنا فى لجة من الدهشة ، لا أدرى كيف أهدىء روع الرجل وأسرى عنه ، أنظر اليه تارة فأراه كالبركان الثائر يقذف بالحمم ، وأرجع النظر كرة الى « عبد العزيز » فاذا هو كالعود النخر يوشك أن يتهاوى ...

ووقفت أودع المعلم « عوف » وأرجو له سكينة النفس ورخاوة البال ، وما هى الا أن هرولت اغادر هذا السجن الموحش ، وقد بنيت عزمى على ألا أطأ له عتبة من بعد ..

وانقضت أسابيع وأنا اتمثل شبح الرجل الكسيح فى لحيته الشعثاء ونظرته النكراء ووجهه الملتهب ...

وأعجب ما كان من أمرى أنى احسست شعورا دفينا يلح على أن أعاود زيارة الرجل ، وعبثا حاولت اقصـــاء هذا الشعور عنى ، فأقلتنى سيارة الى الحانوت ، وهنالك تبينت « عبد العزيز » حيال منضدة التجليد يعمل ، وقد رانت

على وجهه صفرة شاحبة ، وبدا كأنه غصن ناحل ذهبت بنضرته جدوبة الخريف . فابتدرته أسأل :

ــ كيف حال المعلم ؟

ــ أسوأ حال

فتبعته الى منزل الرجل أزوره فيه

ولم أحمد هذه الزيارة ، كما كان شأنى فى الزورة الاولى بل لقد خرجت هذه المرة أنعى على نفسى ضعفها فى مطاوعة ذلك الشعور الغامض الذى قادنى الى رؤية هذا الرجل ، والى سماع ما يصبه على الناس أجمعين من حسد وبغض ، وما يخص به صبيه « عبد العزيز » من شــــكاية وزراية واستنكار ، وفيما أنا منصرف عن الرجل ، حانت منى التفاتة الى « عبد العزيز » فألفيته غائم العينين يذرف منهما الدموع الغزار

وعلى الرغم منى كررت زيارتى لهذا الرجل الناقم ، وفى كل مرة أخرج من عنده حانقا على نفسى وعلى العالم كله ، وملء جوانحى تقزز ونفور ، كأنى أخرج من قبر راعتنى فيه جيفة عفنة لا تطاق

وكان « عبد العزيز » على توالى الايام يستبد به الهزال وتجحظ عيناه جحوظا يجعله أقرب الى الشبح المخيف ، وكأنه هيكل عظمى يتحرك لينشر الرعب من حوله على من يراه ...

وفى أخرى زياراتى لصديقى البغيض المعلم « عوف » صادفته يتقلب على فراشه كالملسوع ، وفمه يهدر بلعنات جياشة ، وقد أخذته نوبة شيطانية من الضجيج والعجيج

فامتدت عدواها الى ، وشعرت بالنار تسرى فى اوصالى ، واذا أنا أحس رغبة عارمة فى الصراخ والتدمير ...

وانقلب الرجل ثورا هائجا يعض الوسائد ويمزقهـا بأسنانه ، ويبعثر قطنها فى أرجاء الحجرة ، فاعترانى خوف شديد ، وهممت أن أهرب من وجه الثائر المهتاج

وسرعان ما سمعت صوتا أبح ، واذا هو « عبد العزيز » يتلوى بجوار الباب ، ووجهه جمرة تتضرم ، ويده تلوح بقوله :

ـ كفى يا معلم .. كفى !

وخرج يقفز ، فقفزت أثره بلا وعى ، وأدركته يجتـاز باب المنزل كالسهم المارق ، ويمضى صوب الحانوت ...

فتمهلت فى مسيرى أستعيد رباطة جأشى . ولما قاربت الحانوت سمعت من جوفه صرخة مدوية اقشعر لها بدنى وتسمرت قدماى ، فوقفت لحظات لا أملك لنفسى رشدا

على أنى تدانيت من باب الحانوت أتشجع ، وألقيت من خلف الزجاج نظرة ، فلم يبح لى الظلام عن مكنـون . واستطعت أن أقتحم الباب ، فرأيت على خطوات منى مشهدا ممضا لا أنسى فظاعته ما حييت ، ذلك هو « عبد العزيز » ملقى على الارض بجوار الآلة القاطعة للورق ، والدم ينهمر حواليه ، وساقاه على مقربة منه ، منفصلتان عنه !

فأما ما كان من بعد ، فقد انتهى كل شىء على خير مايمكن أن يكون ...

أسعف « عبد العزيز » بالعلاج ، وعاد بعد أسابيع الى

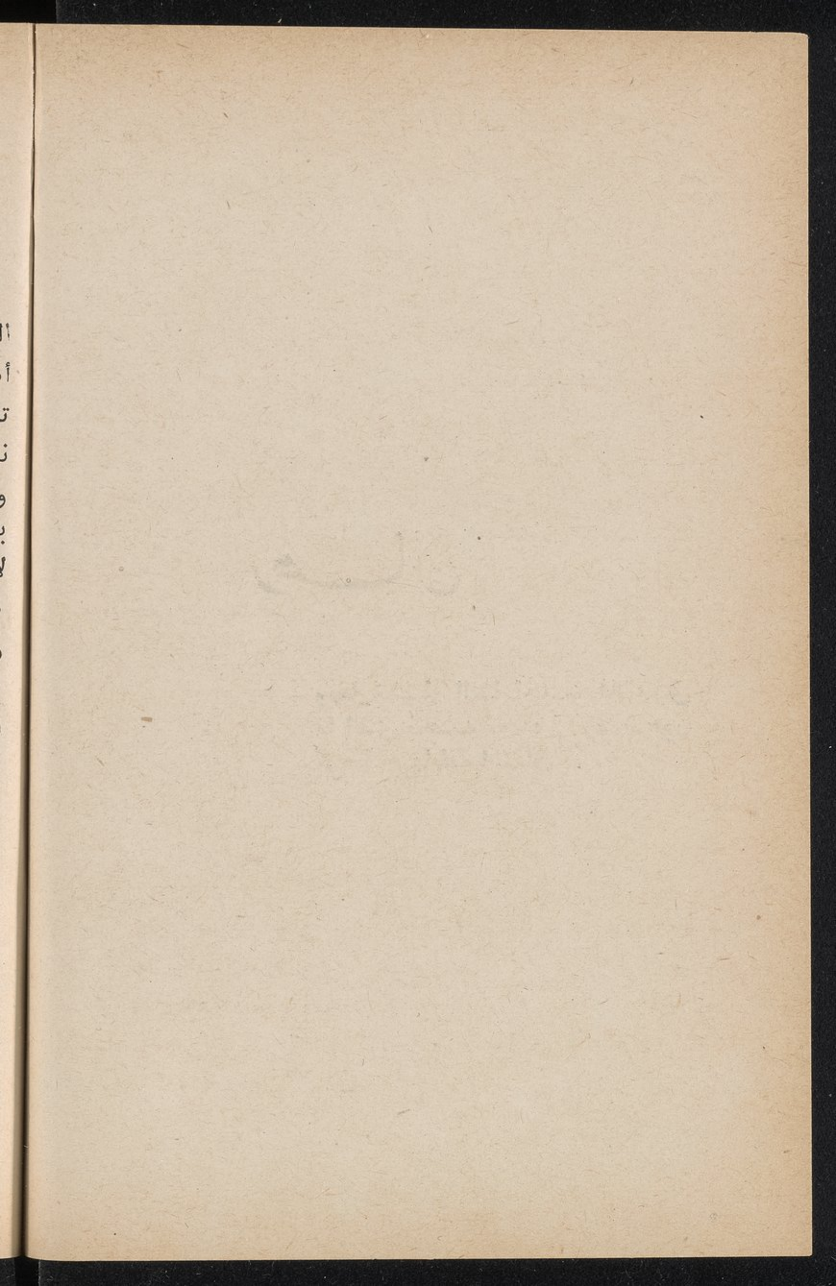
الحانوت ، يتحامل على مسندين خشبيين ، ليزاول عمله أمام منضدة التجليد ، كأن لم يحدث له حادث يذكر !

وقد سكنت ثائرة المعلم « عوف » فلم يعد يبدى من شكاية او تذمر . بل لقد عراه انقلاب ، فأصبح وادع النفس يهش ويبش ، ونشط للعمل ، فترك سجنه فى المنزل ، وخرج الى الدنيا يستقبل الناس ويبادلهم الود ، وقد استبدل بساقيه المبتورتين ساقين أنيقتين من خشب !



رهان

ربما أساء الينا أحد ، فلاندرى ما الذى نحسه نحوه ؟ أهو شعور كره ؟ أم عاطفة اشفاق ؟



« سليم افندى » طالب فى مدرسة « الذكاء المصرى »
الثانوية ، عرف بين اخوانه بميله الى الادب العربى ، وجودة
أسلوبه فى كتابة موضوعات الانشاء . وكان من بين زملائه
تلميذ اسمه « مجدى » لا يفتأ يحسده على مكانته التى
نالها ، ويأبى ان يعترف له بها ، وان كان يتظاهر بصداقته
وكثيرا ما يجادله فى شئون تافهة ، يتشبث فيها « مجدى »
برأيه ، مع وضوح الحق فى جانب رفيقه ، و « سليم »
لا تغيب عنه دخيلة زميله ، ولكنه لا يبالى ضغينته ، اذ كان
قانعا باخلاص صديقيه الحميمين « حسين » و « على »
والاربعة الرفاق يلازم بعضهم بعضا اكثر الوقت فى الفترات
يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم ..
الفول القريب من المدرسة . فاذا ما اقترب الامتحان الفيتهم
يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم . .
ترك « سليم » المدرسة ، يوما من الايام ، متأبطا محفظته
وقصد محطة الترام ليركب عائدا الى منزله ، وطال مكثه
على غير جدوى ، اذ تأخر الترام عن موعده ، فضجر
ومر به بائع الصحف ، فاستوقفه ، وجعل يتصفح مجموعة
من الجرائد والمجلات ، وفيما هو يبحث ، عثر على صحيفة
لم يكن قد رآها قبلا ، اعجبته لاحتوائها على كثير من النبذ
الادبية ، وهى تسمى « راية العرب » فاشتراها . وقدم
الترام فركبه ، وقطع الوقت يقرأ ما راقه من الموضوعات

وقد لا حظ ان بعض المقالات مذيل بأسماء بعض الطلبة

وعاد « سليم » الى منزله ، وهو مغتبط بصحيفته ، ودخل حجرته ، وما لبث ان شعر برغبة ملحة تدفعه الى الكتابة ، ولكن فى أى شىء يكتب ؟ لقد اضطربت الموضوعات فى رأسه ، فلم يدر ايها يختار ؟ وطفق يسير فى الغرفة ويداه الى ظهره ، ثم وقف امام النافذة يتأمل جنبـــات الطريق ، فاسترعى بصره منظر يصلح أن يكون موضوعا طريفا لمقالته ، فاستل القلم ، ومضى يكتب ... وطالت على هذه الحال جلسته ، لم يغير موضعه ، ولم يرفع بصره عن اوراقه ، حتى استكمل موضوعه . وحينئذ وضع القلم جانبا ، وراح يمسح وجهه بمنديله . ونظر حوله ، فألفى الحجرة موحشة بدأت جحافل الظلمة تحتلها . وعاد الى مراجعة ما كتب ، فافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ..

وبينما هو كذلك ، اذ الباب قدانفرج ، وظهرت «دلوعة» شقيقته الصغرى ... رآها تدخل فى محاذرة وتلصص فاختبأ خلف الستارة ، فوجدها قد انطلقت تجمع بعض الاوراق من مكتبه ، فأضاء الحجرة على الفور ، وخاطبها فى لهجة عنيفة ، قائلا :

ـ الم انبه عليك الا تدخلى حجرتى ، ولا تقربى مكتبى ؟

فأرتج على الفتاة بادىء بدء ، ثم مالبثت ان استعادت شجاعتها ، وقالت :

ـ لقد اتيت لانظف مكتبك !

ـ كذابة !

ـ والله العظيم لقد ...

ـ لاتحلفى بالله كذبا يا « دلوعة » ... انى أعرف لماذا أتيت ... جئت لتسلبى مكتبى أوراقه !

فنكست الصبية رأسها ، وواصل « سليم » حديثه ، قائلا :

ـ تأخذين اوراقى لتلعبى بها .. وهل انسى ما فعلته بكراسة الانشاء ؟

فنظرت اليه فى استكانة وضعف ، وغمغمت :

ـ وماذا فعلت بها ؟!

ـ جعلت من بعض أوراقها لفائف ملأتها باللب والحمص ووزعتها على صويحباتك !

ـ اؤكد لك انى لم ..

ـ قلت لك لا تكذبى ... وأخذت تعبثين بالورق الباقى فقصصته على اشكال عرائسك ..!!

والتفت الى الاوراق التى كانت تجمعها ، ثم قال وهو يعيد ترتيبها :

ـ واليوم وقع اختيارك على مذكرات التاريخ والجغرافيا ما شاء الله ..!

ومد يده ليعرك اذنها ، فاذا هى قد اندفعت تبكى ، وهى تستغفره متذللة ، فهمس :

ـ كم من مرة بكيت واستغفرت !

فصاحت الفتاة وهى تشهق :

ـ ستكون هذه آخر مرة ، والله العظيم !

ومشت اليه ، وتشبثت بصدره ، وهى مازالت تبكى

ومكث « سليم » لحظة صامتا ، ثم شعر بنفسه يحتضنها ويربت ظهرها قائلا :

ـ عفوت عنك ، على شرط الا تعودى الى مثل ما فعلت

ـ لن اعود الى ذلك ابدا !

وخرجت تجرى ..

وتنهد « سليم » وهو يتبعها بنظره ، ثم عاد الى مقالته فقرأها وهو جد مغتبط ، ورأى أنه لم يختر لها عنوانا بعد ، فرجع الى النافذة ، وسرح بصره فى الطريق المغمور بأشعة القمر .. لبث على هذه الحال ساعة ، ثم خالجته نشـوة من الفرح مفاجئة . وهرع الى المقالة يكتب فى رأسها : رضيع يتألم !

غادر « سليم » منزله مبكرا فى صباح اليوم التالى ، وقصد من فوره صندوق البريد فأودعه مقالته .. ومن ثم اتخذ طريقه الى مدرسته ، وقضى يومه رخى البال ، وتعرف اصدقاؤه فى وجهه ابتهاجه ، فطفقوا يسألونه : ما الخبر ؟ فراوغهم ، ولم يكاشفهم بحقيقة الامر . ولكنه فى مختتم النهار ، حينما كان خارجا من المدرسـة مع صديقه « حسين » ، الفى نفسه مندفعا يسر الى الصديق قوله :

ـ لقد أرسلت اليوم مقالة لجريدة «راية العرب» فمارأيك فى ذلك ؟

ـ فكرة رائعة اهنئك عليها !

ـ اشكرك ..

ـ وما عنوانها ؟

ـ « رضيع يتألم » .. قطعة عاطفية وصفية !
ـ لقد احسنت صنعا باختيار الكتابة فى هذا النوع ، فانك نابغ فيه ..
ـ اتظن ذلك ؟
ـ بل اعتقد .. هل لك أن تطلعنى على مسودة المقالة ؟
ـ سأقرؤها لك ..
وانتبذا ناحية بمعزل عن اعين التلاميذ ، وشرع «سليم» يقرأ لرفيقه المقالة ، وما كاد يتمها حتى صاح «حسين» :
ـ تحفة فنية غالية يا صديقى .. اقسم باللهاننى لم اقرأ قطعة فى الصحف الادبية تفوق قطعتك هذه .. اهنئك يا صديقى !
فلمعت عينا « سليم » وقد عقد التأثر لسانه ، وسار الصديقان الى محطة الترام ، ويد احدهما فى يد الآخر ، والتفت « سليم » الى صاحبه وقال له :
ـ الم تر بعد « راية العرب » ؟
ـ كلا !
فنادى « سليم » بائع الصحف ، واشترى منه نسختين من الراية ، فأعطى واحدة لرفيقه وقال له :
ـ صحيفة راقية ذات موضوعات ادبية رائقة !
وجاء الترام ، فتصافح الصديقان ، وصعد فى المركبة «سليم » ملوحا « لحسين » تلويح الوداع
وقضى « سليم » الوقت فى الترام ، وهو مسترسل فى احلام هنيئة ، يبنى لنفسه مجدا عاليا فى عالم الصحافة والادب . وما ان دخل البيت حتى هرع الى مربيته العجوز

وشرع يحتضنها ويقبلها ، ثم همس فى أذنها :
– لقد بعثت مقالة الى صحيفة « راية العرب » !

فأصاخت اليه المرأة ، وهى لا تفهم شيئا .. وواصل الفتى حديثه :

– انها صحيفة ادبية راقية ، وستظهر مقالتى فى العدد الآتى .. لقد اكد لى « حسين » انها مقالة رائعة !

وانبعث يحدثها عن المقالة والصحيفة وصديقه «حسين» ولما تبين له انها لم تع من قوله كثيرا او قليلا ، تركها وانزوى فى حجرته

وفى غده شاعت بين الرفاق فى المدرسة حكاية المقال ، اذ لم يملك « حسين » ان يكتم الخبر . فلما ظهر بينهم « سليم » اقبل عليه الزملاء يستجلونه الامر ، فانطلق يحدثهم عن المقال فى اسهاب . وحضر بعد قليل « مجدى » وجعل يتسمع ما يدور بين الرفاق من الحديث ، فما عرف انه دائر حول مقالة « سليم » حتى ارسل ضحكة سخرية، ختمها بقوله :

– ان امثال هذه القطعة الانشائية لن يكون نصيبها الا الاهمال !

فابتسم « سليم » واقترب من « مجدى » ولا طف كتفه وقال :

– واذا نشرت مقالتى يا صديقى ، فماذا انت فاعل ؟
فأسرع « مجدى » يقول :
– اراهنك على ان مقالتك لن تنشر !
– تراهننى على ذلك ؟.. حسنا !

فتوسط « مجدى » الحلقة ، وقال جهير الصوت :

ـ اذا نشرت المقالة ، فسوف ادفع «لسليم» نصف جنيه واذا لم تنشر ، دفع هو هذا المبلغ الى

فصاح « سليم » :

ـ قبلت الرهان !

ودق الناقوس ، فتأهب الاصدقاء لدخول الفصول ، وهم يتبادلون الحديث فى ذلك الرهان العجيب .. !

واخذ « سليم » يترقب ظهور « راية العرب » فى ايام الخميس والاثنين ، اذ كانت الصحيفة تظهر مرتين فى هذين اليومين من الاسبوع ، ولكن لتعس حظه لم يجد اثرا للمقال ..

وانقضت ثلاثة اسابيع ، والقلق يزدحم فى قلبه ، والهم يتكاثر عليه ، وكان « مجدى » يشترى الصحيفة ويأتى بها الى المدرسة ، باسطا اياها امام « سليم » وبقية الرفاق وهو ينادى بأعلى صوته ، محاكيا لهجة بائع الجرائد :

ـ راية العرب ، ومقالة السيد سليم اليوم ... ملحق !

فيعلو الخجل وجه « سليم » ويشيع الكمد فى قسماته، ولكنه كان يظهر التجلد ، ويجارى « مجدى » فى هزله ومجونه !

وفات على الرهان شهر ولم تظهر المقالة ، وكان الرفاق مجتمعين عن كثب من باب المدرسة ، فى ركن اعتادوا الاجتماع فيه . فجاءهم « مجدى » وقال :

ـ صبرت شهرا يا اخوانى ... ومن حقى أن أطالب « سليما » بدفع الرهان !

فأجاب « سليم » بهدوء :

– انت محق فى طلبك هذا يا « مجدى » ... وسأعطيك المبلغ غدا ...

ثم التفت الى الجمع ، وقال :

– ولننس أيها الاصدقاء خبر هذه المقالة السخيفة التى شغلتنا شهرا بلا فائدة ...

وقال « حسين » :

– واذا ظهرت المقالة بعد ذلك ؟

فعاجله « مجدى » بقوله :

– لا يهمنى أن تنشر بعد اليوم ... لقد انتظرت شهرا ظهرت فيه الجريدة ثمانى مرات ... حسبى هذا ...!

وتكلم « على » فقال :

– فلنرجىء البت فى الامر الى خروج العدد المقبل ، فاذا لم تكن فيه المقالة أجيب « مجدى » الى طلبه !

فوافق الجمع على هذا المقترح ، وأهملوا ما أبداه « مجدى » من اعتراض ...

وكان اليوم التالى هو يوم الخميس ، موعد ظهور « راية العرب » . فغلت حماسة الرفاق ، وانتظروا بنافد الصبر خروجهم من المدرسة ليشتروا الجريدة ، ويروا لمن من الزميلين كسب الرهان ؟

وخرج الرفاق زمرة واحدة ، ميممين محطة الترام ، وهرع « مجدى » نحو بائع الجرائد ، واشترى منه نسخة من « الراية » وفعل مثله « على » و « حسين » ... وأكب

الثلاثة يتصفحون الجريدة بلهفة . وما هى الا أن صاح « مجدى » :

ـ كسبت الرهان ... كسبت الرهان !.

وأخذ يطوح بالجريدة فى يده ، ويطوف بها على الزملاء ، وهو يقول : لا أثر مطلقا لذلك « الرضيع المتألم » أيها الاخوان ! ...

وشعر « سليم » كأن خنجرا ينفذ فى صدره ، فوقف صامتا يقضم أظفاره ... وأخذ بعض الرفاق الجريدة من « مجدى » وتناوبوا تصفحها ، فلم يجدوا فيها مقالة الزميل أما « حسين » فكان يستوعب صحائف الجريدة فى تؤدة ، معنيا بكل ما تقع عليه عينه من المقالات والنبذ . وفجأة سمعه الجمع يصيح :

ـ لقد عثرت على المقالة ... المقالة هنا ... !

وجرى نحو « سليم » وبسط الجريدة أمامه ، وأشار الى المقالة الافتتاحية قائلا :

ـ انها مقالتك ... هى بعينها ... خذ واقرأ ...

فتناول « سليم » الجريدة منه ، وانبرى يقرأ المقالة ، وفى لمحة أضاء وجهه ، والتمعت عيناه ، وقفز الى «مجدى» وهو يقول عالى الصوت :

ـ ها هى ذى مقالتى ... هى عينها ... انظر ... انظر ...

فرمقه « مجدى » بنظرة غيظ ودهشة ، وأخذ الجريدة منه ، وراح يفحص عن المقالة ، وأحاط الرفاق بالزميلين المتنافسين ، وقد اشرأبت أعناقهم ... وبعد هنيهة رفع

« مجدى » عينيه عن الجريدة ، ونظر حوله ، ثم قال :

ــ لا أدرى كيف ينتحل شخص لنفسه مقالا ليس مذيلا باسمه ؟!

ثم أدار نظره الى « سليم » وقال :

ــ أنت تدعى أن هذه المقالة لك ... فأين اسمك اذن ؟

فخطف « سليم » الجريدة من « مجدى » وبحث عن اسمه فى عقب المقال ، فلم يجده ، فاختلجت حدقتا عينيه ، وهمهم :

ــ انهم لم ينشروا اسمى !

فقال « حسين » :

ــ هذا غريب جدا ... ولكن لم لا يكون سهوا ؟

فتقدم « مجدى » وقال :

ــ ان نشر المقالة ، خالية من اسم الكاتب ، يفيد أنها من قلم التحرير ... وفضلا عن ذلك فعنوان هذه المقالة ليس العنوان الذى أخبرتنا به ، وهو : رضيع يتألم ... !

فثار « سليم » غاضبا ، وهو يقول :

ــ انهم سرقوها ... سرقوها ، ونسبوها لأنفسهم بلا تورع ... يالهم من أوغاد !

ــ هذا كلام واه لا ينهض به برهان ... أنت تتهم قلم التحرير بالسطو على مقالتك ، لتسوغ موقفك ، أما أنا فأتهمك بالسطو على قلم التحرير ، ونسبة المقال الى نفسك ... !

ــ أنا أسطو على مقالة غيرى ؟... أتجرؤ على اتهامى بذلك ؟

فاتجه « مجدى » الى الرفاق ، وقال يخاطبهم :

ـ نحن هنا أمام أمر واضح يا اخوانى ... فاذا أراد « سليم » أن يثبت أن المقالة له ، فليقم على ذلك البرهان !

فنظر الرفاق الى « سليم » فصاح :

ـ تعالوا معى الى المنزل ... فأريكم المسودة !

فغمغم « مجدى » :

ـ نذهب الى المنزل لنرى المسودة !؟

ـ وما المانع ؟!

ـ لا شيء ... لا شيء ... هيا !

وركب الزمرة الترام ، ووصلوا الى المنزل ، وقادهم « سليم » الى حجرته ، وقصد على الفور مكتبه ، ومد يده فى المكان الذى وضع فيه مقالته ، فلم يهتد اليها ، فأعاد البحث وهو يمعن ويتفحص ، فلم يجد شيئا ... فعجب أشد العجب ، وانطلق يفتش فى كل موضع يصح أن يضع فيه المقالة التائهة ، فذهبت جهوده عبثا . وكان قد تصبب جبينه عرقا من الاعياء ، واكفهر وجهه من الحيرة ... وترك الحجرة ذاهبا الى الخادم العجوز ، فألقى عليها بضعة أسئلة فى عجلة واضطراب ، فعلم منها أن أخته « دلوعة » دخلت حجرته فى أثناء غيابه ، وجمعت منهـا رزمة من الاوراق . فجرى على الفور الى غرفة أخته ، واندفع يبحث فيها ويجد فى البحث ، فكان نصيبه هذه المرة أيضا الاخفاق فرجع يسأل الخادم : أين أخته ؟ فأجابته بأنها ذهبت الى الخيالة(١) مع عمته ، فراح يضرب الارض بقدمه ، ويلوح بيده مهددا ، ويقول :

---

(١) ـ السينما

– سترى ! ... سترى ! ...

وأقبل على أصدقائه ، فأخبرهم بأن أخته قد دخلت حجرته فى غيبته ، وعبثت بأوراقه ، وكان المقال فيما عبثت به ... فأطلق « مجدى » قهقهة عالية وقال :

– ان أعذارك يا سيد سليم تدعو الى العجب ... أجئت بنا الى هنا لتسمعنا هذا الكلام ؟!

والتفت الى الجمع ، وقال :

– انى منصرف أيها الاخوان ... والى اللقاء فى المدرسة يوم السبت ... !

وهم بالخروج ، فاستوقفه « سليم » وقال له :

– عندى برهان آخر ... وأرجو الا يخيب !

فوقف « مجدى » متبرما يقول :

– وما هو ؟

– ان نذهب جميعا الى ادارة « راية العرب » لأثبت لكم ان المقالة بقلمى ، وليكن ذلك غدا ...

فأجاب « مجدى » فى شىء من الاهمال :

– لا بأس ... اذا كان هذا يرضيك !

– اذن فلقاؤنا فى مطعم الفول الذى تعودنا الافطار فيه قريبا من المدرسة ... وليكن موعدنا التاسعة صباحا ...!

□

فى صبيحة الجمعة ، اجتمع الرفاق فى مطعم الفول ، وبعد أن تناولوا فطورهم قاموا قاصدين ادارة « راية العرب » وكان الجمع هذه المرة منقسما حزبين ، الاول لمناصرة « سليم » والآخر لمشايعة « مجدى » ... وكان كل من

الحزبين يسير على حدة : حزب « مجدى » فى المقدمة ، يصحبه اللغط العالى والضحك المتتابع ، يتلوه حزب « سليم » بهدوئه وتهامسه ...

وأخيرا وصلوا الى ادارة «الراية» ، وكانت دارا متواضعة ذات طبقتين ، لا تمتاز عن دور الازقة الا بلوح مكتوب فيه اسم الجريدة ، معلق على جدار الدار ، لم تدع له الشمس نضارته ...

وصادفوا الباب مفتوحا ، فدخلوا ولما لم يجدوا أحدا فى صحن الدار ، وقفوا متحيرين ، فتقدم « مجدى » نحو السلم الواصل الى الطبقة العليا ، وجعل يصفق ، ثم رفع صوته قائلا :

ـ يا أهل الدار ... الا يوجد أحد هنا ؟

فسمعوا صوت خطوات ، ظهر على أثرها غلام على أعلى السلم ، سألهم قائلا :

ـ من حضرتكم ؟

فأجاب « مجدى » :

ـ وفد من الطلبة

ـ وماذا تريدون ؟

ـ مقابلة رئيس التحرير فى أمر مهم !

ـ انتظروا قليلا ...

فوقفوا ينتظرون . ولما طالت غيبة الغلام ، ظلوا يروحون ويجيئون ، دفعا لسأم الانتظار ، فاتضح لهم أن الطبقة الاولى ليست مسكونة ، وكانوا يسمعون من الطبقة العليا رجلا غير واضح الصوت ، فى نبراته ما يدل على التوبيخ

والتهديد . ثم تبع ذلك حركات مصحوبة بمواء قط ، فأخذ الرفاق يلتفت بعضهم الى بعض ، ويبتسمون

وبعد يأس ظهر الغلام ثانيا على السلم ، وطلب منهم أن يصعدوا ، فارتقوا الدرج مسرعين ، ووجدوا أنفسهم فى ردهة صغيرة ليس فيها من الاثاث الا بضعة كراسى قديمة منثورة حولها قصاصات من ورق الجرائد . وقادهم الغلام الى غرفة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها ، فاذا هى غرفة رخيصة الاثاث ، قائم فى أحد أركانها مكتب رياسة التحرير ... وما كاد الجمع يتوسط الغرفة ، حتى رفع « رئيس التحرير » رأسه عن أوراقه ، وخطا نحوهم مرحبا ثم التفت الى الغلام ، وقال له :

– اذهب وأعد القهوة على عجل ... وادع لى « خليل افندى » فى الحال

ولم تمض لحظة ، حتى صاح رئيس التحرير :

– يا « خليل أفندى » ... يا بليد أفندى ... يا حضرة الغبى ... ما هذا التأخير ؟!

ثم وجه حديثه الى الطلبة قائلا :

– لا مؤاخذة يا حضرات الافندية ... ان هذا الرجل لا يشتغل الا اذا طرقت الشتائم سمعه . مضت الآن ساعة وأنا انتظر مقالته ...

ثم استأنف ينادى « خليل أفندى » ناعتا اياه بمختلف النعوت المرذولة ...

وبعد فترة ظهر « خليل أفندى » على عتبة الباب ، وقطه يتمسح بين رجليه ، وكان رجلا محطما ، زرى الهيئة ،

يحمل مجموعة من الاوراق تهتز فى يده بلا انقطاع ، ووجهه محتقن بزرقة دكناء ، يزدحم بالتجاعيد البعيدة الغور ، وعيناه محمرتان بلا أهداب . وكان يسير بخطا متثاقلة . وبين فترة وأخرى يضطرب كتفاه بحركة عصبية ظاهرة

ولما اقترب من المكتب ، ناول رئيس التحرير أوراقه ، ووقف جانبا يهز كتفيه ، وأخذ رئيس التحرير المقالة ، وانشأ يتصفحها بنظرات سراع . ثم رمق « خليل أفندى » بنظرة شزراء ، ومزق الأوراق ، ورماها فى وجهه قائلا :

ـ مقالة اليوم رديئة جدا ... لا أقبل أن أنشر فى جريدتى أمثال هذه السخائف ... لقد كانت افتتاحية العدد الاخير أحسن مقالة كتبتها فى حياتك !

وما بلغ هذا القول أسماع « سليم » حتى اختلجت أعضاؤه ... واستكمل « رئيس التحرير » حديثه مع المحرر قائلا :

ـ يجب أن تفهم أن دار جريدتى ليست مأوى للعجزة ولا مدمنى الخمر ... هيا ... تفضل ... !

فلم يبد أى تأثر على وجه الرجل ، وبقى كتفاه على حالهما تهتزان ... وانحنى على الارض ، يجمع قصاصة مقالته فى تبلد ، ثم خرج وهو يسير بخطواته المتثاقلة ، وقطه بين رجليه يتمسح فيه ويموء !

وكانت نظرات «سليم » فى أثناء ذلك لا تفارق وجه المحرر ، ولم يكن يدرى على التحقيق ما الذى يحسه نحوه فى هذه اللحظة ؟ أهو شعور كره ؟ أم هى عاطفة اشفاق ؟! ووجد نفسه يقف بغتة ، ويتهيأ للكلام ... وظل كذلك

وقتا ، وهو يحاول أن ينبس ، فشخصت اليه الابصار ، وجعل صديقه « حسين » يشجعه ويغريه،ولكن بلا جدوى وجلس « سليم » وقد تضرج وجهه ، وتفصد العرق من جبينه

والتفت « رئيس التحرير » الى الجمع ، وقالَ :

ـ لقد أراد الأفندى أن يتكلم ، ولكنه لأمر ما فضل السكوت ... ألا أستطيع أن أعلم أى خدمة تريدون أن أقدمها لكم ؟

فوقف « مجدى » وقفة الخطيب ، وتكلم بصوت جهورى طليق :

ـ سيدى رئيس التحرير ... نحن وفد من طلبة المدارس الثانوية ، جئنا نعرض شكوانا من تشعب البرامج الجديدة ، وازدحامها بالمواد ، مع ضيق الوقت وقلة المؤلفات ...

فنظر الرفاق بعضهم الى بعض مدهوشين ، ولما سمع « سليم » قول زميله « مجدى » غلى الدم فى عروقه ، وانقضى وقت وهو يحمل نفسه على الكلام ، ثم وقف يمسك بمقعد أمامه ، ويستند اليه ، فتطلع اليه « حسين » محمسا ، فاندفع فى خطابة مسهبة ، فاذا به يشرح لرئيس التحرير ـ بمنطق مهوش ـ صعوبة المواد وقلة الأكفاء من المعلمين الجدد الذين كلفوا تدريس هذه المواد ...

وكان يتكلم محتدا مهددا ، فكأنه يسب ويصخب ، ثم بدأ يتلعثم ، واشتد احتقان وجهه ، وتوالى ارتجاف أعضائه ولما رأى « حسين » ما وصلت اليه حالة صديقه ،

جذبه من سترته ، راغبا اليه فى السكوت ... فأمسك « سليم » على الفور عن متابعة الكلام ، وجلس على مقعده وهو يجفف عرقه ، ويروح وجهه !

وقام « مجدى » والغبطة تشيع فى وجهه ، وقال لرئيس التحرير :

ـ الآن يمكننا أن نستأذن يا أستاذ ، ولا تؤاخذنا فيما أضعناه من وقتك الثمين الذى عرضنا فيه مسألتنا ... نحن شاكرون لك حفاوتك بنا أجزل الشكر ...

وتقدم من « رئيس التحرير » فصافحه ، وما لبث أن مشى الى الباب ، فحذا حذوه الزملاء ...

وما أن أقلهم الشارع ، حتى انفجر « مجدى » ضاحكا وهو يقول :

ـ ما رأيكم أيها السادة فى هذه المهزلة ؟ حقا انها لمهزلة لم يسمح بمثلها الزمان قط !

واقترب « سليم » من « مجدى » ، وأخرج من جيبه خمسين قرشا ، ثم ناول زميله اياها ، وهو يقول فى صوت أجش مضطرب :

ـ لقد كسبت الرهان يا « مجدى » ، وها هوذا فى يدك لم ينقص ... فأهنئك !

وترك الرفقة المكان ، عدا « سليم » و « حسين » فقد مكثا واقفين حيث هما لا يتحركان . والتفت « حسين » الى صديقه ، وقال :

ـ حقا لم أستطع أن أفهم شيئا مما جرى ... لماذا لم تتكلم فى الموضوع الذى جئنا من أجله ؟... أو لماذا

لم تطلب الى أن أفعل ذلك نائبا عنك ؟

فأخذ « سليم » يد صديقه فى يده ، وشد عليها ، وهو يقول :

ـ أو كنت تظن أنى أناقش ذلك المحرر الحساب ؟ ماذا كنت تريد منى أن أصنع برجل محطم مهدم كهذا الرجل

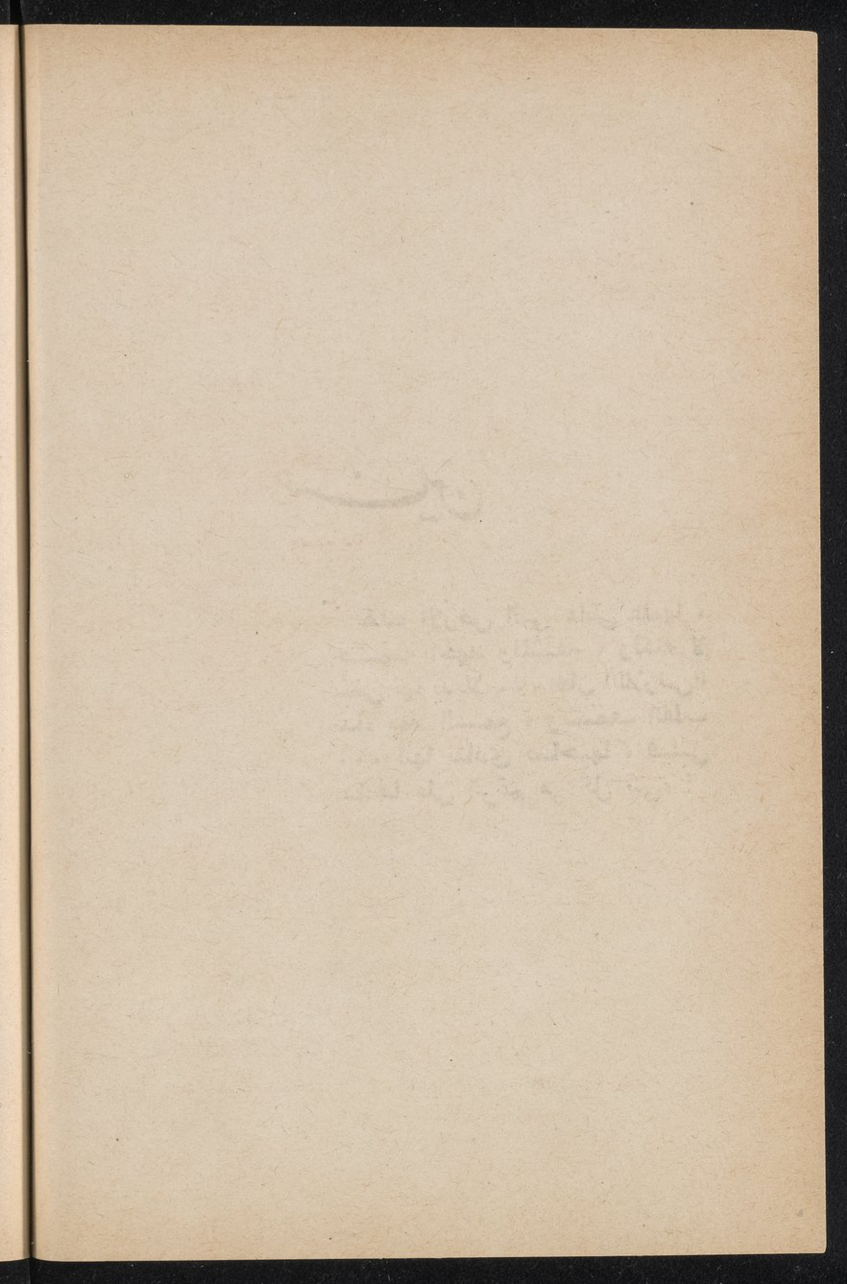
وصمت كلاهما بعض الوقت

واندفع « سليم » بغتة ينشج ، مرتميا على صدر صديقه كما ينشج الطفل الصغير !



حنين

هذه الارض التى عاش عليها ،
جشمته الجهد والمشقة ، ولكنه لا
يبغى بها بديلا ... فان «للارض»
نداء يملأ السمع ، ويشغف القلب
... انها تنادى صاحبها ، فيلبى
نداءها على الرغم من كل شىء !



كان « السيد افندى كساب » ناظرا لضيعة الشياخات
ولد فيها من أب فلاح ونشأ فى الحقل منذ نعومة أظفاره ،
لا يعرف فى الدنيا الا مهنة الفلاحة ، وقد بدأ حياته رئيسا
للزراع ، وأظهر براعة فائقة ونشاطا فى العمل الذى وكل
اليه ، فرقى الى وظيفة خازن ، ثم الى معاون ، فناظر .
وهذا أقصى ما يطمح اليه فلاح . وكان أمينا فطنا ، له
حافظة من خوارق الطبيعة ، فاستطاع أن يدبر شـئون
الضيعة كأمهر متعلم . ظل طول حياته فلاحا قلبا وقالبا.
حسبك أن تجالسه برهة تصغى الى رنين صوته الممتلىء
وتنظر الى عينيـه البراقتين ليتراءى لك الريف بأسره ،
الريف العظيم ، بشمسه الوهاجة ، وظلاله الوارفة ، بهوائه
اللافح ، ونسيمه الوديع ، بغدرانه الهادئة ، وسـواقيه
النواحة ، بخوار بهائمه ، وأغانى فلاحيه .. وكانت له دار
متواضعة ليست أكثر اتساعا ولا أرفع شـأنا من دور
الفلاحين ، سكنها أبوه من قبل ، ونشأ هو فيها وترعرع ،
وشب فيها أولاده ، فلم يشأ أن يغيرها ، وعاش فيها كأنه
فى قصر رحب

وكان يتقاضى مرتبا لا يزيد على خمسة جنيهات ، فما
كان أعظمه من مرتب ! فى أى شىء يصرفه ؟ كل شىء عنده :
الجاموسة ترتع لا تكلفه من شىء ، والطيور تضيق بهـا
الدار ، وحديقته الصغيرة التى بجوار الترعة تمده بكل

ما يطلب من نبات طيب لذيذ . وقد مات بعض أطفاله ، ولحقت بهم زوجته ، فلم يتغير طبعه ، ولم تهن عزيمته . فهو رجل البشر والعمل . وهذه الأرض المتسعة العظيمة كان ينظر اليها كأنها أرضه ، وهذه الماشية التى تملأ الحظائر ، وتغطى المراعى ، كان يعدها ملك يده ، بل انه ليضمر لها حب الآباء للأبناء ! كان يمضى اليوم كله متنقلا فى الحقل يراقب الفلاحين وهم يحرثون ويزرعون ، وربما تناول المحراث من أحدهم وجعل يحرث فى اهتمام ، وعينه تلمع ، وصدره يعلو ويهبط . أو يمسك بالفأس يضرب بها الأرض فى قوة وعزم ، ثم يرفع رأسه ويتلفت حوله وهو يقول :

— ماذا رأيتم يا أولاد ؟ لقد كانت أرضا صلبة ، ولكنها وجدت من هو أصلب منها ! ..

ثم يبادل الفلاحين النكات المرحة ، ويندفع مقهقها فى سذاجة الاطفال . أما اذا رأى تهاونا من أحد فانه ينقلب جبارا ينشر الرعب فى القلوب ، وكيف يقبل تهاونا فى العمل ، والعمل روحه الذى يستمد منه الحياة ؟

واذا ما حان وقت الغداء جاءوا له بالخبز الرحراح(١) والبصل وخثارة الجبن(٢) أسوة بجمهور الفلاحين، فيجلس معهم فى حلقة واحدة يأكل ويتحدث كأنه فرد منهم . ولا يكاد الطعام ينتهى حتى يقوم « كساب افندى »منتصبا يصرخ بأعلى صوته قائلا :

---

(١) المرحرح (٢) المش

ـ هيا الى العمل يا أولاد !

ويستأنف الفلاحون شغلهم ، يعملون عمل الجبابرة ، وصوت الرجل يدوى بينهم كأنه الرعد

وعند الغروب يعود « كساب افنـــدى » الى الضيعة ووجهه يفيض بشرا ورضا ، يجفف عرقه المتصبب من جبينه بكم ردائه ، ويذهب من فوره الى حظيرة المواشى . هناك يجد البهائم متراصة أمام معالفها ورءوسها محنيـة تأكل فى شره ، لا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين . يدخل الرجـل فاذا برءوس المواشى قد ارتفعت عن المعالف ، وجعلت تنظر اليه بعيون مشرقة مرحبة وهى ما زالت تلوك فى فمها ما بقى فيـه من العلف ، وتمسح بألسنتها أنوفها المصـقولة فتزيدها التماعا ، كأنهـا تريد أن تظهر أمامه بالمظهر اللائق به . وبغتة يدوى صوت أحدها فى صراخ مسترسل ، وهو ناشر أذنيه فى اهتمام ، ويحد بصره فى الرجل . ولا تمضى لحظة حتى تتجاوب الحظيرة كلها بأصوات هذه البهائم الساذجة الطيبة القلب ، وقد اندفعت تتصايح فى تحمس شديد ، يحاول كل منها أن يظهر على رفقته ، ويكسب دونها عطف مولاه .. ويصيح « كساب افندى » بصوته الجهورى :

ـ ما هذه الضوضاء ؟!

فتسكت البهائم على الأثر ، الا حمارا لم يكن بعد قد أكمل مقطوعته فى الترحيب ، فيرميه « كساب » بنظرة حادة وهو يقول :

ـ حقا انك حمار !

ويعيد الحمار رأسه الى المعلف وهو يهز مغمغما ، ويمر « كساب أفندى » بالبهائم واحدا واحدا ، وهو يلاطف ظهر هـذا ويداعب رأس ذلك . ويماجن آخر بنكتة لا يفهمها الا هو ورعيته .. يوزع عطفه بالسوية بينها ، لا يخص أحدا منها بامتياز . واذا أحس أنه زاد فى ملاطفته لأحدها أسرع مبتعدا عنه وهو يختلس النظر الى البقية ، خشية أن يكون قد أثار فيها شيئا من الغيرة !

واذا ما عاد الى داره هوى على المصطبة منهوك القوى ، وهو مبتسم الثغر . وتأتى له بالطعام « أم الهنا » مربيته ومربية أولاده ، خادمته العجوز الوحيـــــدة . وينطلق « كساب أفندى » يقص عليها فى اسهاب ما فعله فى يومه ، ويستفتيها فى منازعاته مع الفلاحين ، ويصغى لقضائها فى رضا وقبول . وبعد أن ينتهى من طعامه يقصد الى الفرن فيعتليه متمددا ، ويستغرق برهة فى تفكير عميق ، يعرض فيه بعض مناظر من ماضى حياته ، وتتراءى له الدار وهى تزخر بأطفاله وتتجاوب بصيحاتهم ، ثم يراهم وقد كبروا حتى صارت البنات عرائس . ثم كيف تزوجن واستقررن فى ديار أزواجهن ، وكيف غدا ابنه الوحيد « عبد الغنى » طبيبا نابها كبير الاسم ، يعيش فى قصره المنيف «بالقاهرة» ثم كيف بقى هو و « أم الهنا » وحيدين فى هذه الدار .. ويسمع صوتها وهى جالسة على الارض بالقرب من رأسه، فيطلب منها أن تقص عليه طرائف من قصص طفولته ، وتبدأ المرأة تحكى ، و « كساب » يصغى ، والابتسامة دائما تتألق على وجهه ، يستقبل بها أحلامه العذبة

غير أن الدنيا تنكرت « لكساب » فجأة ، فحل به مرض عضال ، فنقله ولده الى « القاهرة » وأسكنه معه ، وأحاطه بعنايته ورعايته حتى أبل . وعاش « كساب » فى كنف ولده مكرما معزز الجانب مغمورا بمناعم الحياة . ولكنه ظل دائما كما كان ، رجل الريف الصميم بجلبابه وعباءته . ولم يعرف من « القاهرة » كلها الا بعض المساجد وأضرحة أهل البيت يذهب اليها ليتعبد . وكذلك قهوة « الحاج ابراهيم » القريبة من مسكنه حيث يقضى الوقت فى ركن منعزل يدخن الطباق فى القصبة(١) ، ويستسلم لأحلام هادئة

دخل « كساب » يوما القهوة ، وكان ملتحفا عباءته القديمة يتقى بها هجمات الرياح الباردة . وقصد الى ركنه المألوف ، فلمحه صبى القهوة ، واتى له على الفور بالقصبة وبالقهوة ، ووضعهما أمامه بعناية كبيرة ، وأمسك « كساب افندى » بالقصبة وأدنى مبسمها من فمه فى حركة آلية ، وأخذ يدخن وعيناه تنظران نظرا تائها

وسمع صوت « الحاج ابراهيم » صاحب القهوة وهو يتحدث الى نفسه . وبعد قليل ظهر رأسه الأشيب بلحيته المهندمة ، وأخذ يدور فى المكان بعينيه الكابيتى اللمعة . وما أن وقع بصره على « كساب » حتى أشرق وجهه بابتسامة خفيفة ، وخرج من مخبئه يسير فى تباطؤ كأنه يمشى على أرض ملساء يخشى أن ينزلق . وأقبل عليه وحياه مرحبا به ، فرد عليه « كساب » التحية فاتر

---

(١) نوع من النارجيلة يستعمل فى القهوات البلدية ، ويعرف بالجوزة

اللهجة ، وتناول الرجل كرسيا ، وجلس عليه بجوار صديقه . وبعد أن تمخط وبصق ، التفت اليه وقال وهو يحدق فيه :

ـ كفى الله الشر ! مالك ؟

فرفع « كساب افندى » حاجبه الأيمن ثم خفضه ، وجذب نفسا طويلا من القصبة ، ونفخ دخانها على مهل .. وأخيرا قال :

ـ أنا متضايق ! ..

ـ لماذا ؟

ـ متضايق والسلام !

وجذب نفسا آخر ، والتفت الى « الحاج ابراهيم » ، وضغط يده قائلا :

ـ مرت على الآن أربع ليال و « البنهاوى » يتراءى لى فى المنام !

فهمهم « الحاج ابراهيم » وقال :

ـ البنهاوى ؟!

واتسعت عينا « كساب افندى » وانبعث من حدقتيهما بريق قوى ، وامتلأ صوته بحيوية جديدة ، وهو يقول :

ـ أجل « البنهاوى » يا « حاج ابراهيم » ! لقد تركته عجلا صغيرا ما زال شعر الطفولة عالقا بظهره . وكنت أمنى نفسى أن يشب فى كنفى

ونكس « كساب » رأسه ، ولزم الصمت برهة ، ثم رفعه وقال فى صوت أشبه بالهمس كأنه يناجى نفسه :

ـ أجل « البنهاوى » ... « البنهاوى » الذى حضرت

بنفسى ولادته . أتصدق ؟! لقد قضيت الساعات وأنا فى الزريبة أعنى بأمه . وكان الجو باردا والمطر ينهمر ، ثم تلقيته بيدى : تلقيته قطعة حمراء ملساء كالحرير ، ونظرت اليه فوجدته يحدق فى بعينيه البراقتين اللتين تشبهان فصوص الماس .. هذا هو « البنهاوى » الذى كنت أحضر أوقات رضاعه ، وأهيىء له مرقده ، وأقضى وقتا هنيئا أراقبه وهو يقفز فى صحن الدار قفزاته المضحكة ..

ومرت فترة صمت ، ثم عاد « كساب » الى الكلام فقال :

ـ لقد كنت سعيدا فى بلدتى ، فلماذا أتوا بى الى هنا ؟ طالما جاءنى ابنى هناك ، وألح على أن أعتزل العمل ، وأن أسكن معه فى «مصر» حيث الراحة والهناء ، فهل سمعنى أتألم من عملى أو أشكو من حياتى ؟ كان يعيب على أن أبقى فى هذه الوظيفة ، التى كان ينعتها بالوضيعة ، وأن أمد يدى لآخذ مرتبا لا يصح له أن يعطيه سائق سيارته . يا لانكار الجميل ! أنسى أننى بهذا المرتب الوضيع استطعت أن أنفق عليه حتى وصل الى هذا المنصب الذى يحسد عليه ؟! ..

ونكس « كساب افندى » رأسه فى استسلام ، وجعل ينظر الى الارض والحزن باد عليه ، وغمغم قائلا :

ـ ولكن المرض ، المرض هو الذى غلبنى على أمرى ، هو الذى هزمنى وحطمنى . يالله ! لم أكن أعرف المرض فى حياتى ! سبعون عاما قضيتها وأنا أهزأ بهذا الدعى الثقيل حتى شعرت به يهاجمنى على حين غرة ، وجاهدت

ما استطعت أن أجاهد لأتخلص من وطأته ، ولكن لم تجد محاولتى شيئا. لقد كنت أحس به يأكل من لحمى، ويشرب من دمى ، وينـــال من قوتى ، حتى أيقنت أنى هالك . وحضر ابنى فوجدنى أكاد ألفظ نفسى الاخير ، فحتم نقلى الى « مصر » ، فلم أعارض . لقــد كنت فى ذلك الحين كالطفل الصغير المسلوب الارادة . وحملونى الى المحطـة والناس من حولى يودعوننى ، ويطلبون لى الشــفاء .. وكنت ألتفت حولى فى مشقة أملأ عينى من منظر الحقول .. وسمعت بغتة خوارا من بعيد ، فشعرت كأن سكينا تحز فى قلبى . أهو خوار « البنهاوى » يهتف بى ويسأل عنى ؟! ومسحت دمعتى بكفى ..

... وفتحت عينى يوما ، فوجدت نفسى على سرير فى حجرة فخمة ، وبجانب رأسى امرأة تلبس البياض كأنها عروس كبيرة من عرائس الحلوى فى موالد الاولياء .. ومرت الايام ، واستطعت ان أنهض من فراشى ، وجاء ابنى يهنئنى ويقبلنى ..

وعشت فى هذه الحجرة الفخمة أياما أخرى .. يالله ! لم كل هذا ؟! خدم وأتباع ، ونور يخطف البصر ، وموقد كهربى يبث الحرارة فى كل مكان و .. و .. ولكننى كنت أنظر حولى كالغريب وأتنهد ، ثم أطلق العنان لأفكارى ، أين دارى الريفية ؟! أين فرنى أتمدد عليه ؟! وأين « أم الهنا » تخدمنى ؟

ثم استطعت أن أفارق الحجرة وأخرج الى الحديقة . لقد كانت فسيحة جميلة التنسيق . ولكن أين هى من

حقلى؟! وهذا البستانى الأبله الذى يقوم على شأن الحديقة ، لم نستطع أن نتفاهم معا على شيء . فكأننا أجنبيان لا يعرف كل منا لسان الآخر . كنت أسخر منه كلما رأيته ، فالتزم أن يتجنبنى ، حتى التحية لم يعد يبادلنى اياها !

وترادفت الأيام وأنا لا عمل لى ، أقضى نهارى جالسا أمام البيت أتثاءب متعجبا من بطء الزمن . كان يخيل لى أن اليوم لن ينتهى، واننى سأقضى السنين لا أغير جلستى. وكان كثير من الزوار يقبلون على يمطروننى وابلا من الاسئلة، فاذا لم يحظوا منى برد سمعتهم يتهامسون : ما أغباه من بواب !

لا شيء يعوزنى فى هذا المنزل الرحيب ، ولكننى مع ذلك أحس أننى يعوزنى كل شيء ، فأقضى يومى صامتا أتصفح همومى !

□

واستغرق « كساب افندى » فى الصمت ، ثم أدنى مقعده من مقعد « الحاج ابراهيم » ، وقال فى صوت خافض ، وهو ينظر اليه نظر الحالم :

ـ لقد حدث لى أمس حادث غريب ، أريد أن أفضى به اليك ، علك تستطيع أن تفسره لى : بعد أن تناولت العشاء قصدت الى حجرتى ، وجلست على المقعد ذى المسندين ، وكنت تعبا ، فأرحت رأسى على ظهره . ولكننى لم أطبق جفنى ، أؤكد لك أنهما كانا مرفوعين . ومضى وقت لا أعرف مداه وأنا أعرض فى مخيلتى شتى

المناظر بين قديمة وحديثة . وفيما أنا على هـــذه الحال سمعت صوتا من بعيد يغنى أنشودة ريفية قديمة ، كثيرا ما ترنمت بها فى شبابى ، فأصغيت اليها فى اقبال ، وشعرت بقلبى يملؤه ذلك النور القديم ، وأحسست دفئا طيبـا يشمل جسدى ، وامتلأ أنفى برائحة البرسيم الطيبة .. وكان الغناء يعلو ويقترب رويدا ، ولكن من أية جهة ؟ ومن هو الذى ينشد ، أفرد أم جمع ؟ وبعـــد حين أصبحت الحجرة تتجاوب بتلك الأنشودة ، وشعرت بنشوة عظيمة ، وتمثل لخاطرى أننى أرى أشباحا تروح وتغـدو أمامى ، وأنعمت النظر فيها ، فاذا بهم أصحابى الفلاحون وزوجاتهم ، كلهم فى حللهم الجديدة التى يلبسونها فى يوم العيد ، كلهم مبتهجون ينظرون الى بعيونهم المكحلة .. ثم رأيتهـــم يختفون . كانت تطويهم جدران الحجرة ، وأخذ الغنـــاء يتضاءل رويدا رويدا حتى أصبح ضـــعيفا لا تكاد أذنى تعيه ، ثم عم الحجرة الصمت ، وقمت من مقعـــدى وأنا أناديهم صارخا ملحا .. لقد كنت أشعر أن قلبى يتمزق ، ورأسى يحترق .. وهرول الى ابنى ، وعنى بأمرى ، فأرقدنى على السرير وأشربنى دواء سرى فى على أثره فتور ورغبة فى النوم ..

□

فى مساء اليوم التالى ، خرج من منزل الطبيب رجل يسير فى حذر وتلصص ، يلبس الملابس الريفيـــة ، وهو ملثم الوجه بمطرف من الصوف ، وكانت وجهته محطـة السكة الحديدية ، ولما وصل اليها أخذ تذكرة فى الدرجة

الثالثة الى بلدته « الشياخات » . وأخذ مكانه فى العربة ، وهو يلتفت يمنة ويسرة فى شيء من الذعر ، وما كاد القطار يتحرك حتى انفرجت أسارير وجهه . وغمره البشر والاطمئنان ، وغمغم بكلمات حمدً وشكر لله

وسار القطار يشق طريقه فى الظلام ملولا ، يصعد زفراته المتقطعة . لقد كان هو وركابه كسالى متعبين ، يغمرهم خمول ثقيل ، ما عدا هذا الرجل الريفى المشرق الوجه ، فقد كان يقظا كثير الحركة ، يعجب لبطء القطار ويستعجله ، وكلما وقف القطار فى محطة أطل من النافذة متطلعا ، وجعل يرسل بصره حوله مدققا فاحصا ثم يعود الى ما كان عليه ، وقد أخذ صبره ينفد .. وأخيرا ظهرت « الشياخات » يلفها ظلام كثيف ، ويرفرف عليها صمت شامل ، فعرفها الرجل دون أن يراها ، عرفها بشعوره كما يعرف الحيوان موطنه بغريزته ، وأحس رجفة تتمشى فيه ، وتطلع من النافذة يريد أن يمزق بنظره الحاد حجاب الليل الأسود الذى يغشى كل شيء . رأى أبراج الحمام القائمة عند مدخل البلدة ، شاهد الجامع المتهالك بعضه على بعض ضعفا وهرما ، وهذه أشجار التوت الخمس الشامخة بفروعها فى الجرن ، تلك التى طالما تفيأ ظلالها الوارفة واستمرأ ثمرها اللذيذ .. وهب عليه ذلك النسيم الرطب ذو الرائحة الخاصة ، النسيم الذى صحبه فى مدارج حياته كلها ، والذى يستطيع أن يميزه بين ألف نسيم .. وقف القطار ونزل الرجل يقفز منه كأنه ابن عشرين ، وترك المحطة عجلا واتجه فى خطا فسيحة نحو

الضيعة . كان الطريق خاليا الا من بعض الخفراء أخذتهم سنة من النوم ، وهم مجتمعون أمام خص من أخصاصهم ، وقبالتهم بقية من نار كانوا يستدفئون بها ، عرفهم الرجل واحدا واحدا ، ووقف برهة يتأملهم ، وقد ساوره شيء من الضيق ، وأراد أن يصيح فيهم صيحته فى سالف أيامه ينبههم الى واجبهم . ولـكن سرعان ما علت شـــفتيه ابتسامة سانحة ، وتابع سيره الحثيث نحو داره ، حتى اذا ما وصل اليها عالج الباب حتى فتحه ، ودخل الدار فى سكون وهو يطوف بنظره فيما حوله ، ويشم الهواء فى لذة مسكرة ، وأحس الدفء المنبعث من الفرن ، وتشبع أنفه برائحة الخبز ، ولمح عباءته القديمة معلقة على الحائط كأنها ترحب بقدومه ، و « أم الهنا » مكورة على فراشها بالقرب من الفرن تتنفس تنفسها الهادىء البطىء . كل شيء كما هو لم يتغير ، كل شيء معد لاستقباله : العباءة موجودة ، والفرن دافىء ، والأرغفة الرحراحة الشهية تملأ المشنة ، و « أم الهنا » نائمة تنتظر عودته من الحقل ، أحقا كان فى « القاهرة » ؟ أغاب عن وطنه ستة أشـــهر كاملة ؟

وتحركت « أم الهنا » فى فراشها وفتحت عينيها ، فما أن وقع بصرها عليه حتى قامت فزعة وهى تقول :

ـ من ؟ من أنت ؟!

وكادت تخرج من حلقها صرخة استغاثة ، ولكن الرجل تقدم نحوها بطىء الخطا ، وهو يقول ضاحكا :

ـ أنسيتنى يا « أم الهنا » ؟

ووقفت المرأة تدعك عينيها فى دهشـــة وتردد . ثم اندفعت بكل قوتها نحوه ، وجعلت تقبل يده ، والدمع يطفر من عينيها ، وقالت فى صوت متهدج :

ـ سيدى ! سيدى !

وجلس « كساب » على سطح الفرن ، وقعـدت المرأة على الارض بالقرب من قدميه ، وسألته قائلة :

ـ لماذا لم تخبرنا بقدومك ؟

ـ وهل كنت أعلم أنا بموعد سفرى ؟!

وأخذ يسألها عن أشياء مما يتصـــل بالضيعة : عن « البنهاوى » ورفاقه ، عن الارض وما أنتجت من محصول، عن همة الفلاحين فى العمل ..

كان يصغى طويلا ولا يتكلم الا قليـــلا . وكثر تثاؤبه وتمطيه ، وقامت به رغبة فى النوم ..

ونهضت « أم الهنا » متسللة الى خارج الدار ، وهى لا تستطيع كتم ذلك السر العظيم فى صدرها . ذهبت الى جارتها تزف اليها هذه البشرى

وبعد قليل سمع « كساب » هرجا ومرجا وأصـــواتا مختلفة ، مصحوبة بأغاريد النساء . وكان مسندا ظهره الى الحائط وهو فى شبه غفوة خفيفة ، ففتح عينيـــه وابتسم

وتدفق الناس من الباب يحيون زعيمهم الكبير ، فقام الى لقائهم ، وبسط لهم ذراعيه يحتضنهم ويحتضنونه ، ويقبلهم ويقبلونه . ثم صاح « بأم الهنا » قائلا : القهوة حالا للضيوف !

وجلسوا جميعا على الارض ، و «كساب» معهم يتبادلون في اختلاط عبارات الترحيب والايناس

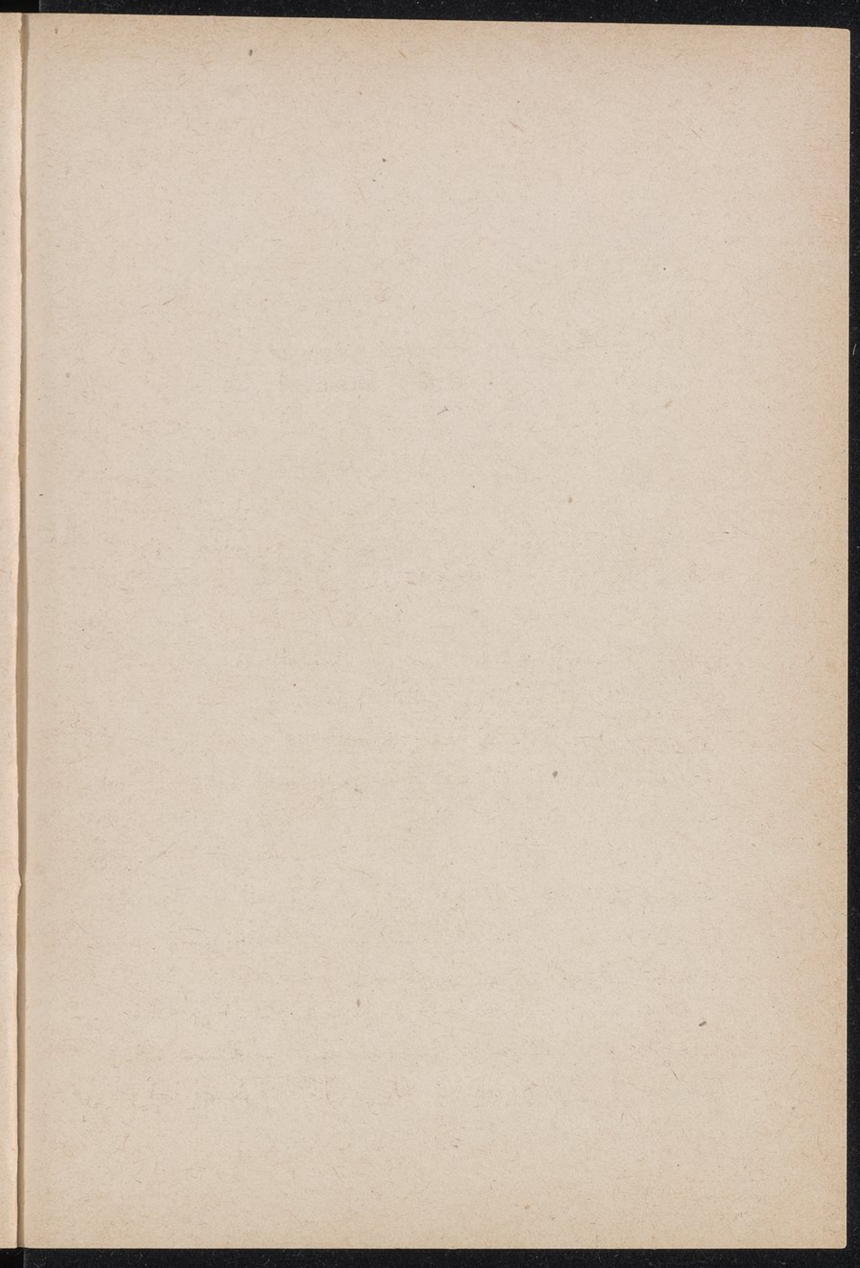
وألح على « كساب » التعب وعاد النوم يغزوه في عناد يالله ! أنه يطبق أجفانه ويسند رأسه الى كتف جاره .. وشعر بأيد تحمله الى سطح الفرن ، وتمدده عليه

ثم لم يلبث أن انساقت به الاحلام كل مساق !! ..



جاء الشتاء

هذه النفس البشرية فى أعماقها
حين تهفو الى الخير ، تعبث بها
الاهواء ، فتأبى الا ان يكون
احسانها .. .على حساب الغير !



الشتاء على الأبواب ...

انه ليشعر الناس بمقدمه المخوف ، وأنه ليقدم دائما فى موكب من ضجة واصطخاب . أليس هو موسم العواصف والزوابع ، موسم الرعود والبروق ، فكيف ترجو اليه أن يقبل عليك فى سكينة وهدوء ؟

الشتاء على الأبواب ...

لا خيرة للناس فى استقباله ، فليس لهارب منه نجاء ، سيان عنده من هش له ، ورحب به ، ومن نقم عليـــه ، وتحرز منه

كانت أسرة « العنتيل » ممن يمقتون الشتاء ، أبغض شىء اليها هذا الزائر البارد الطلعة ، الثقيل الوطأة ، هـــذا الذى يعلن قدومه فى هجمة غاشمة ، لا يأتى البيوت من أبوابها فى تحشم واستحياء ، ولكن يقتحم النوافذ والمسارب والشقوق فى اجتراء ، فيزلزل السماء والارض ، ويقلب الكون رأسا على عقب

وأســـرة « العنتيل » تأوى الى بيت من تلك البيوت المهشمة التى عاثت فيهـــا تصاريف الزمان ، ينزوى فى أطراف حى « القلعة » ، كأنه جندى أثخنته الجراح فتخلف عن رفاقه فى الميدان ، وبقى وحده يعانى سكرات الموت

وذات عشية من شهر نوفمبر ، راع الأسرة أن السقف من فوقها يضطرب كأنه يوشك أن يخر ، وأن الارض من

تحتها تميد كأنها توشك أن تنخسف ، وأن مصاريع النوافذ تتصادم وتتضارب

فى هذه الليلة ، علمت الاسرة على يقين أن وافدالشتاءقد حل ، وأنها تستقبل مكاره ذلك الضيف الثقيل ، فعليها أن تتجهز له ، وأن تروض نفسها على مصاحبته ، حتى يرحل عنها بعد أشهر معلومات ...

وهرول « العنتيل » الى صوان الملابس ، فجعل يقلب فى محتوياته ، لكى يتفقد معطفه القديم الذى لزمه أشتية متوالية ... حقا تدسست الى هذا المعطف عوامل الرثاثة والبلى ، ولكنه استطاع أن يسبغ الدفء على صاحبه ، وأن يحميه خلال الشتاء من معقبات البرد القارس ... وكفاه !

أطال « العنتيل » بحثه فى أركان الصوان وزواياه ، فلم يجد للمعطف من أثر ، فأقبل على زوجه يسألها عنه ، ولكنها أبت أن تنصت له ، اذ كانت بمتاعها هى وأولادها فى شغل شاغل ، فتابع الرجل سؤاله فى الحاح واهتياج . فرفعت الزوجة بصرها اليه مدهوشة تقول :

— أى معطف تسألنى عنه ؟ المعطف المهلهل الذى علمت منك غير مرة أنك زاهد فيه لن ترتديه ، وأنك معتزم شراء معطف جديد ؟!

— انى فى حاجة اليه ... على به

— ألست معتزما شراء معطف جديد ؟

— قولى لى : أين أجد معطفى القديم ؟

— لقد جاءنى أمس الرجل العجوز المسكين ، ساعى الادارة الذى يعمل تحت أمرتك ، فأشفقت عليه من برد

الشتاء ، فدفعت المعطف اليه ، التماسا لدعوة صالحة منه
وفغر « العنتيل » فاه مذهول النظرات ، وكاد الغضب
يبلغ به حد الثورة ، لولا أن عاجلته الزوجة بقولها :
ـ أنت رجل عطوف القلب ، ولك عند الفقراء مآثر ،
والألسن تلهج بالثناء عليك ، فهل تبخل على ساع مسكين
بذلك المعطف القديم ينجيه من هلاك محقق ؟!
وأطرق الرجل يفكر هنيهة ... لقد صدقت زوجه فى
وصفها اياه بأنه حسن الاحدوثة فى الناس ، وأن قلبه فياض
بالخير والبر ، ولكن ذلك كله لا يبلغ عنده مبلغ التفريط فى
معطفه العتيد ، ذلك الرفيق الكريم الذى لا يعوض ...
لا ينكر « العنتيل » أنه تحدث يوما فى شأن اعتزامه شراء
معطف جديد أنيق ، يلائم منصبه فى رياسة قلم التسجيل
بمصلحة التنظيم . ولكن أين المال الذى ينيله ذلك المطلب
المرموق ؟
وهم بأن يأخذ على الزوجة سوء تصرفها حين وهبت
المعطف ، قبل أن تستأذنه ، فألفى الزوجة تسبق اليه
وهى تقول :
ـ ألم يؤكد لك رئيسك أنك حاصل على الترقية حتما
هذه الايام ؟ سيتيسر لك المال ، فلا تحمل هما لثمن المعطف
الجديد
وألفى « العنتيل » نفسه يغمغم ولا يبين ...
وفى الصبيحة من غده ، ترك بيته قاصدا مصلحة التنظيم ،
كدأبه كل يوم ، فما كاد يتخطى عتبة الباب حتى تعاورته
الرياح ، فأسرع يتكمش فى اهابه ، ويضم حواشى سترته

اليه ، ورفع بنيقة السترة يحمى عنقه الهزيل المعروق .
ثم جد فى السير ، كأنما يبارى هذه الريح الهبوب . وفى أثناء سيره بنى عزمه على أن يتحدث الى مدير الادارة فى أمر الدرجة المرجوة ، حتى اذا نالها استطاع أن يحصل على معطف جديد يجابه به جبروت الشتاء ، ويزهو بجدته ورونقه على الأقران ...

وأقبل على حجرته ، فكان أول من لقيه الساعى العجوز ، ربيب نعمته ، ذلك الذى تلقى من يد الزوجة هبة المعطف العزيز ... وتراءى له الساعى وضاح الجبين يرفل فى معطفه ، لا يبالى عصف الهواء ، وطفق يتقافز حول « العنتيل » مرحبا به ، شاكرا له ، يرفع له يديه بصالح الدعاء ، فرد « العنتيل » تحية الساعى — أو الداعى — فى لهجة طابعها التحفظ والاستعلاء ، وراح يرمق المعطف وهو يلف جسم الرجل العجوز ، كأنه درع سابغة تكفل له الوقاية والامان . ثم انفتل يجلس الى مكتبه ، وهو يسوى بنيقة سترته ، وجعل يبسط قامته ، ويرفع هامته ، يريد أن يبدو فى مظهر شاب رياضى يتحدى عوادى الأجواء

ولبث بعض ساعة فى لمة من اخوانه ، يخوض معهم فى حديث مملول ، حتى علم بمقدم المدير ، فانطلق الى حجرته يحييه تحية الاصباح فى أدب بالغ ، فألفاه يخلع معطفه ، فابتدره يتلقاه عنه ، وحمله فى عناية الى المشجب عن كثب منه ، ثم انعطف يقول :

— كل عام وأنتم بخير ... لقد بكر الشتاء هذا العام ، وقد أحسنت صنعا يا سيدى المدير بارتداء المعطف .

فهمهم المدير يقتضب الحديث :
ـ الحيطة خير
ـ حقا ان الحيطة رأس الحكمة ، ولكنها ليست ميسورة لكل راغب
فنظر اليه المدير بمؤخر عينه يقول :
ـ كيف ؟
ـ متى استطاع المرء أن يحتاط كان له أن يفعل ، فاذا لم يقدر ...
وفطن المدير الى أن « العنتيل » يطاوله فى الحديث لحاجة فى نفسه ، فزوى حاجبيه ، وقال له :
ـ كل امرىء يستطيع أن يدبر أمره ، جهد طاقته ،وفى حدود ملابساته
وانكفأ المدير على مكتبه ، يتشاغل بتقليب ما بين يديه من أوراق ، فتدانى منه « العنتيل » يقول فى نبرات ضارعة :
ـ كيف ندبر أمرنا ونحن على حال من السوء لا نملك معها شيئا من التدبير ؟
فرماه المدير بالنظر الشزر ، وقال له فى ضجر :
ـ لقد رغبت اليك أمس فى انجاز الرسائل المعطلة ، فانشط لها اليوم
فشرع « العنتيل » يفرك يديه ، وهو يقول :
ـ عندى كلمة واحدة أحب أن أبلغها سيادتك
فقال له :
ـ قلها وأوجز
ـ الدرجة ... الدرجة التى وعدتنى بها هذا أوانها ،

فأنا فى ضائقة وعسر ، وهذا هو الشتاء قد أقبل ، وما أشد احتياجى الى معطف

— ألم يبلغك أن التعليمات تقضى بتأجيل الترقيات ؟ ليس فى مكنتى أن أرشحك للدرجة الآن ...

— وهل ينتظرنى الشتاء حتى تنتهى فترة التأجيل ؟ لا بد لى من معطف ، وأنت مستطيع أن تتصرف فى الامر بحنكتك ، حتى أنال الدرجة الآن

— مبلغ علمى أنك تملك معطفا

فأشاع « العنتيل » ابتسامة شاحبة على فمه ، وقال :

— انه معطف أكل عليه الدهر وشرب

وراح يتصنع الضحك فى تظرف ، وهو يختلس النظر الى المدير ، ولكن الرجل ازداد من قطوب ، وقال له مخشوشن الصوت :

— عليك أن تقنع بمعطفك القديم !

— انه مهلهل يا سيدى ، وما يليق بمثلى فى مكانه من رياسة قلم التسجيل أن يبدو فى أسمال ...

فصاح به المدير :

— انك تنظر الى الدنيا بمنظار عتيق ، فجدد عقليتك ، واعلم أننا الآن فى عصر التقشف والاقتصاد وضغط النفقات لقد ولى عصر البذخ والتفاخر ... لا اسراف بعد اليوم !

فاصفر وجه « العنتيل » ، وتلعثم لسانه وهو يقول :

— بذخ ... تفاخر ... اسراف ... لاشىء من هذا كله !

فجلجل صوت المدير بقوله :

ـ تعود التقشف ... خذ نفسك بضغط النفقات ... الترقيات مؤجلة ... لا تضع وقتك سدى

وأدبر « العنتيل » عن مكتب المدير يجرر قدميه ، وهذه الكلمات تطن فى أذنيه : التقشف ... ضغط النفقات ... لا اسراف بعد اليوم !

ولم يكد يخطو فى البهو بضع خطوات حتى لاح له شبح « عم مؤمن » الساعى العجوز ، وهو فى معطفه السابغ يخب، والابتهاج على محياه يتلألأ ، فحدجه بنظرة نكراء ، ثم ازور بعينه عنه ، وتابع خطوه على وجهه قتام

وحاول « العنتيل » غير مرة أن يثير عند مدير الادارة حديث الدرجة المنشودة ، عله يحظى بوعد تطمئن به نفسه، فلم يجد من المدير الا ترديد نصائحه الصاخبة فى شأن التقشف المطلوب ، والنفقات التى يجب أن تضغط ، والاسراف الذى انقضى عهده ، منذ اليوم

فاستيأس الرجل ، وتوارى طيف المعطف الجديد من مخيلته ، حتى لم يبق له أثر ، بل انه لم يعد يطمع فى أن يظفر بمعطف أى معطف ، وأن كان لبيسا من سوق الأسقاط !

ومن أين له بصيص من الأمل ، وهذا مرتبه الضئيل تبتلعه مطالب البيت فى مطالع الشهر ، ولا يكاد يسد الفاقة فى سائر الايام،فلابد معه من الاقتراض،فلكل شهر دين يضاف الى دين ، وأن الديون لتبلغ مبلغا يبعث فى جسم الرجل قشعريرة دونها قشعريرة البرد

لا غرو اذن أن ينتهى الامر بالرجل الى قرار حاسم ، ذلك أن يقضى الشتاء بلا معطف ، وليكن ما يكون !

ولحظ الناس من شأن « العنتيل » أنه قد أصبح على حين بغتة داعية من دعاة التقشف وضغط النفقات ، لايفتأ يبشر بالدعوة فى كل مكان ، تارة يتغنى بها لسانه فى طرب ، وتارة يتحمس لها ويخاصم عليها فى اهتياج ، ولطالما بح صوته وهو يقول :

— الاسراف ... الاسراف ... انه آفة البلد ... انه علة العلل ... علينا أن نناهضه ولا نتهاون به ... لنتخذ من التقشف سنادا ندعم به حياتنا الاقتصادية التى أخلت بها الجهالة والغباوة والحمق ... اياكم والسرف ... وازنوا بين الدخل والخرج ... اضغطوا النفقات !

بمثل هذه الجمل والعبارات ، كان يتحدث الى أقرانه فى العمل ، وجلسائه فى المشرب ، وأهله فى البيت ... فذاع أمره وشاع ، وحلا لبعض الظرفاء أن يلقبه «بطل التقشف» فعرف بهذا اللقب ، وتسامع به الناس ، فتناقلته الافواه فى تهكم كظيم !

وعلم مدير الادارة بما صار اليه أمر « العنتيل » فرضى عنه ، وأغراه بالمزيد ، اذ كان له فى ذلك صارف عن اقلاقه باطلاق الدرجات وصرف العلاوات ... وهذا فضل عظيم!

وتعمق «العنتيل» فى دعوة التقشف وضغط المصروفات، فاذا هى فى رأسه فلسفة شاملة يطبع بها آراءه فى الحياة ، ونظراته الى النـــاس ، تراه فى مجرى حـديثه الدارج الى الرفاق يتطرق الى موضوعات اجتماعية نفسـية ، يطبق عليها قواعده الجـديدة ، فان تحـدث مثلا فى « فلسفة العادة » أسهب يقول :

ـ يسير علينا أن نكتسب الحميد من العادات ، وأن نبرأ من كل عادة سيئة ممقوتة ، متى كانت لنا ارادة ... ارادة صلبة ... ارادة من حديد ... هاكم مثلا ، لا أتصيده لكم من بعيد ، فانى أنا « المثل » ! ... لقد اعتزمت هذا العام أن أعود جسمى احتمال ما يأتى به الجو من أهوية وعواصف ، فمن العار أن يستعبدنا هذا الشتاء ، وأن يريدنا على ارتداء أكسية نحن عنها فى غناء ... لقد تمردت على البرد ، ورفعت فى وجهه راية العصيان ، وأبيت أن أرتدى معطفا كما كنت أفعل ، وهأنذا أصرع الشتاء فى عزم ومضاء ... من شاء اكتساب عادة أو انتزاع عادة ، فليكن سلاحه قوة الارادة !

وما أن يبلغ الرجل من خطابه هذا المبلغ ، وهو فى فورة من حمية وتحمس ، حتى يشتد به العطاس ، ويحتد عليه السعال ، فاذا جلساؤه يتبادلون النظرات ، وقد تراصت على أفواههم بسمات السخرية ، وتسابقت على ألسنتهم كلمات التنادر

أما علاقة « العنتيل » بالساعى العجوز « عم مؤمن » ذلك الذى نال المعطف ونعم به ، فكانت علاقة يشوبها شىء من الغموض والانقباض ، على الرغم من مظاهر الألفة التى تبدو للعيان فى كثير من الأحيان

ان الساعى ليذكر « للعنتيل » جميل صنعه به ، فهو يكن له التكريم والاكبار ، ويحرص على خدمته ما وسعه أن يحرص ، ولكنه لا يملك الا أن يستريب منه ببعض

تصرفات قاسية لم يكن يعهدها فيما سلف من أيام

ان « العنتيل » يلقاه فى هشاشة وبشاشة ، ويمتدح اخلاصه وولاءه ، بيد أنه ينتهز بعض الفرص ، فيغمزه غمزات يألم لها أشد الألم ، وهو يكيل له فى الحين بعد الحين ألوانا من النقد والتهكم تثير عليه من حوله، فيسخرون منه أو يشمتون به ، أو يصبون عليه جام اللوم والتثريب

ولا ينسى « عم مؤمن » أنه كان يوما متخذا جلسة راحة واستجمام ، وقد أخرج علبة لفائف التبغ ، يبغى أن يدخن واحدة ، فاذا « العنتيل » يهل عليه فى جمع من الرفاق ، وبين يديهم أوراق يريدون عرضها على المدير ، فاستوقفهم « العنتيل » أمام الساعى العجوز ، فاضطرب الرجل فى جلسته ، فنهض يلم شعثه ، وهم بأن يوارى علبة اللفائف فى جيبه ، فما كان من « العنتيل » الا أن عاجله ينتزع العلبة من يده ، وهو يصيح فى لهجة مريرة ، ظاهرها مزح ومفاكهة :

— ماشاء الله كان ... ماشاء الله كان ... علبة لفائف «الجمل» ... اللفائف الفاخرة ... يالحظك العظيم !

فجعل الساعى يلغو ولا يكاد يبين ، ثم حاول أن يتضاحك وهو يقول :

— حقا ماأعظمه من حظ ... ولكن ألا تعلم ياسيدى ...

فقاطعه « العنتيل » متعاليا بضحكته العابثة :

— أنت تؤثر الدخان الامريكانى ، لأنك ساع أمريكانى ... لا نظير لك ... بكم اشتريت هذه العلبة ؟!

واعتدل « عم مؤمن » فى وقفته،وهو يجاهد فى مسايرة هذه المناكفة الثقيلة بقوله :

ـ ليست هذه يا سيدى علبة اشتريتها ... انها حطام علبة ... صادفتها ملقاة فى زاوية من حجرة المدير ... لا تحوى الا لفافتين محطمتين مثلى !

فأخذ « العنتيل » بيد الساعى ، وهو يقول :

ـ لاتحسبنا ننخدع بهذا الكلام . . .أنت رجل لك عقلية رجعية سيئة ، فلتقوم عقليتك ، وانى لوجه الله أنصح لك . مالك ولتقاليد السادة المترفين ؟!

ثم طفق يربت ظهره ، وهو يقول :

ـ ارجع على نفسك بما تنفقه فى سبيل التدخين ... اشتر ما ينفعك ... ذلك خير وأولى

واستأنف « العنتيل » سيره مع الرفاق ، وهم يتنادرون على الساعى العجوز المسرف الذى يأبى الا أن يتعاطى الفاخر من الدخان ... وظل الساعى ماثلا فى وقفته ، يحدق الى « العنتيل » ورفاقه بعين تضطرم ، ثم قذف بعلبة اللفائف فى عرض البهو ، وهو يبرطم ويزمجر

ولا ينسى كذلك « عم مؤمن » أنه كان مرة يقضم من شطيرة ضئيلة يسد بها جوعته ، والوقت ضحى ، والحركة على أشدها فى مكاتب الموظفين ، ففجأه « العنتيل » وهو يأكل ، وحدجه بنظرة شزراء ، وقال له :

ـ سبحان الله ... انت دائما لا يفرغ لك طعام ... ما رأيتك الا مشغول الأضراس بشىء تأكله !

فأسرع الساعى يدرأ التهمة عن نفسه بقوله :

ــ أقسم لك ياسيدى أنى خرجت من الدار دون أن أصيب فطورى

فلاحقه « العنتيل » محنقا يقول :

ــ وماحاجتك الى الفطور فى الدار ، وفى مقدورك أن تخرج لتتناوله فى « جروبى » أو «سميراميس» أو ما شئت من مطاعم العظماء ؟! ... يا ناس ، جانبوا الجشع ... أقمعوا شهواتكم ... أين التقشف ؟

فتلاحق السعاة يسمعون حديث « العنتيل » فالتفت اليهم يقول :

ــ الدنيا كلها تسير فى منحى ، و « عم مؤمن » ساعى الادارة يسير فى منحى وحده !

ومضى منتفشا يترنح فى مشيته ، والساعى يشيعه بغمغمة ثائرة تحتبس بين شدقيه ...

وتكررت أمثال هذا المشهد العصيب ، والساعى العجوز فى دهشة وحيرة ، يعجب لما يجبهه به « العنتيل » من مناكدة وعنت ، ويرجو أن يرجع الرجل الى سابق بره به ، واحسانه اليه

واستمرت الحال على هذا النحو ... كلما تعالت ولولة الرياح ، واشتدت صولة الشتاء ، ازدادت حماسة « العنتيل » فى الدعوة الى التقشف وضغط المصروفات ، وتوهجت بطولته فى النهى عن البذخ والترف ... وتبع ذلك كله انتهاز كل فرصة للتهجم على « عم مؤمن » واقتفاء عثراته ،

والانحاء عليه باللوم والتقريع ، واتهامه بأنه مسرف متلاف

وتداعى الناس الى « أسبوع معونة الشتاء » وتنادوا بالاقبال عليه والبذل له ، واذن بالمسير فى طول البلاد وعرضها « قطار الرحمة » حافلا بالامتعة والاكسية يوزعها على المعوزين والعجزة ، وتطايرت أخبار مواكب المعونة تجول فى الأحياء ، وتخترق المسالك والدروب ، تجمع من البررة الاسخياء ما فضل عندهم من أثواب وأشياء ، لترجع بها على المحرومين والعفاة

وجلجل صوت « العنتيل » فى مصلحة التنظيم يحث الرفاق على التصدق ، مذكرا بحق السائل والمحروم ، مشيدا بما يلقاه المحسن عند الله من مثوبة وجزاء

وحل اليوم المشهود ، ودخل « موكب المعونة » دار المصلحة ، ليتلقى عطايا الخيرين من ألوان المتاع ، واخذ الموكب يتنقل بين الحجر والمكاتب ، محوطا بالحشد الزاخر ، ومن حواليه صياح التهلل والتحمس والترحاب

ومضى الموكب يجتاز البهو الى الحجرة التى تضم « العنتيل » ورفاقه ، فما أن تدفق الجمع على الحجرة حتى اعتلى « العنتيل » مقعده ، وانبرى خطيبا يؤيد هذه الروح التى حدت الى معونة الفقراء على مكابدة الشتاء ، فقوطعت خطبته بالتصفيق الحاد ، ونزل عن الكرسى يتبرع بلفيفة انطوت على طربوش قديم جلبه معه من البيت ليجود به ، فشكر له القائمون على موكب المعونة ، وفصلوا عن الحجرة يتلقفون ما يسخو به المتبرعون من هنا وهناك ،

فتبعهم « العنتيل » الى البهو ، وفيما هو يرجع اذ حانت منه لفتة الى الركن الذى يخلد اليه السعاة عند الفراغ من العمل . وكان على أحد الكراسى شىء يتخايل،فما أن لمحه « العنتيل » حتى جعل ينتهبه بنظرات سراع ، ثم أحس بقلبه يخفق ، ويديه ترتجفان ، وفى هذه اللحظة كان الموكب يتأهب لمبارحة المصلحة ، والناس من خلفه حشود ، فألفى « العنتيل » قدميه تدفعان به الى ركن السعاة ، واذا هو يختطف ذلك الشىء الملقى على الكرسى ، ويعجل به الى الموكب ، وهو يتصايح :

ـ هذه منحة « عم مؤمن » ساعى الادارة ... لقد أوصى لكم بها ... ومن تطوع خيرا فهو خير له !

ودفع المعطف الى الرئيس القائم على جمع المعونة ، فتلقاه بالحمد والثناء ، واصطخبت فى الجو هتافات حارة بحياة « عم مؤمن » ساعى الادارة الهمام !

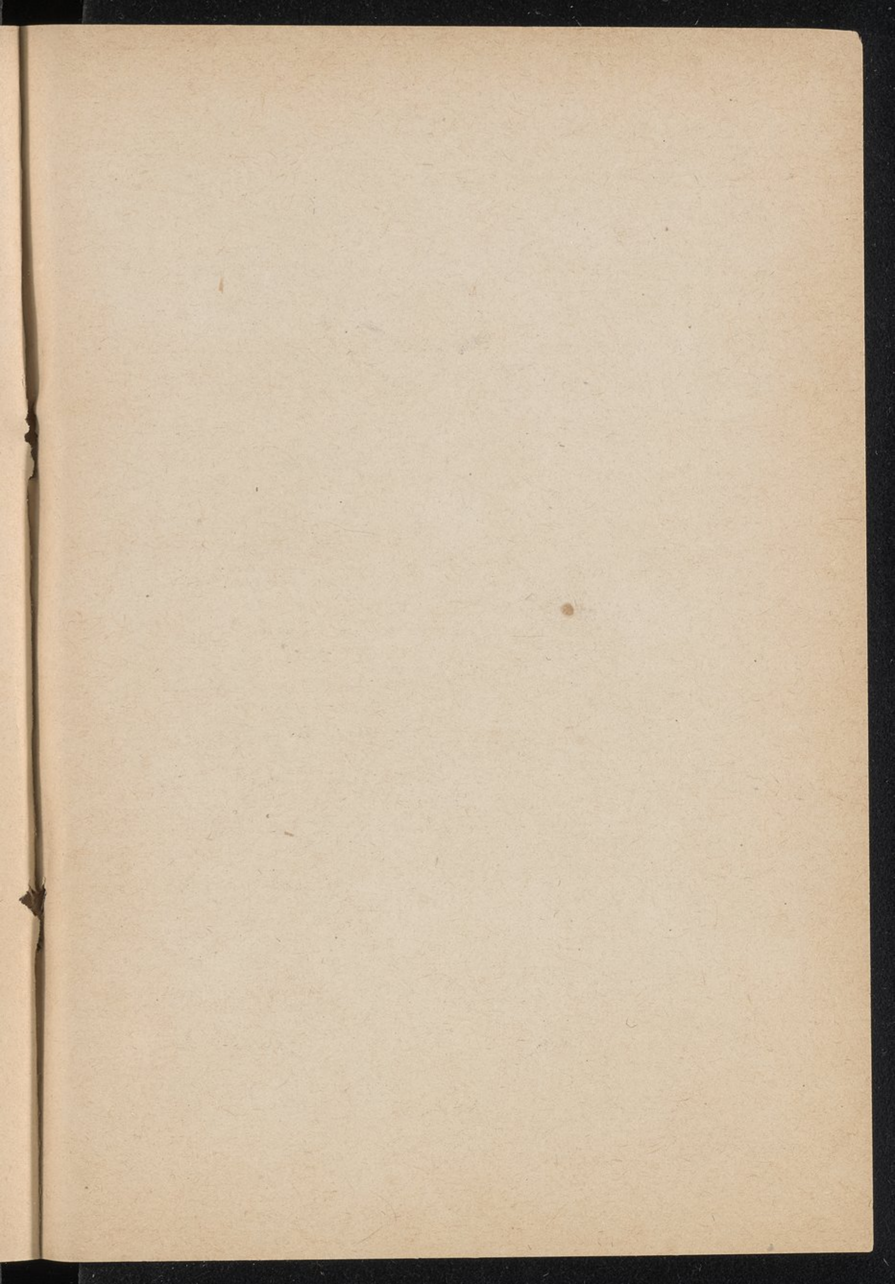
وبعد قليل خرج الساعى من حجرة المحفوظات فى سرداب المصلحة ، وكان يودعها بعض الملفات ، فلما اقترب من بهو الادارة سمع الهتاف باسمه ، فهرول يستخبر عن سر هذا الهتاف ، فأنهوا اليه الخبر ، فانسدلت على عينيه غشاوة من دهشة ، وانبعث فى أعقاب الموكب يستنقذ معطفه ، ولكن عز عليه أن يشق الزحام ، فحاول أن يزعق بأعلى صوته ، فذابت صرخاته فى عباب الضجيج !

وتراجع الساعى الى ركنه فى البهو ، والدنيا تدور به ، وصوته يختنق على شفتيه ، وما عتم أن تخاذلت أوصاله ،

فتهاوى على الكرسى ، مغشيا عليه ... وفى هذه اللحظة أحس الرجل يدين رقيقتين تحيطان به ، وصوتا عطوفا يتحدث اليه ، فرفع جفنيه قليلا يتبين ، فرأى « العنتيل » حياله أول من سارع الى نجدته ، والاطمئنان عليه !

وبينما هو على تلك الحال ، كان موكب المعونة يتدفق فى الشارع ، والاصوات تتعالى باسم « عم مؤمن » ساعى الادارة العظيم ، هاتفة بحياته تمجد فيه بطولة الخير والاحسان !







صفحة

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمدعلى جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

علمتنى الحياة
لنخبة من الشرق والغرب

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

مدرسة المغفلين
تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب

ذو النورين عثمان بن عفان
تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة

الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

الله
تأليف عباس محمود العقاد

نساء النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف



رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى اليها ، كما أن لها خطة مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة فى رفع المستوى الثقافى فى مصر والاقطار العربية . وأما الخطة فالتوفيق بين قديمنا وحديثنا . والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغرب : فلا جمود ولا طفرة بل هو تمش وئيد فى سبيل الرقى الوطيد

ودار الهلال تؤدى واجبها بهدوء وعزيمة معا ، مطمئنة الى ما قد أنتجت ، متطلعة الى اتقان ما تنتج ، لا تداهن فريقا ولا تتملق كبيرا ، ولا تتساهل قيد شعرة فيما تعتمده حقا وصوابا

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق ما عداه . وهى لذلك لا تحفل بالسفاسف والصغائر ، بل ترحب بكل فكرة نزيهة وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام : الى الامام !

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ - ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ - أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى - صاحب المكتبة العصرية - ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس - ص.ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد - البحرين

برقة : السيد محمد على بو قعيقيص - بنغازى - ص . ب ١٠٤

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
7, Bishopsthorpe Road, Sydenham,
London S.E. 26, England.

هذا الكتاب

تحدث الكثيرون عن أدب الثورة ، وطالبوا الأدباء بأن يكون لهم أدب يلائم هذا الحادث العظيم الذى غير مجرى التاريخ المصرى

ولقد قال البعض أن أدب الثورة لا يأتى الا بعد الثورة ، كما حدث فى الثورات التاريخية الاخرى . وكان الاستاذ محمود تيمور أسبق القصصيين الى الانتاج الثائر فألف قصة جديدة هى « ثائرون »

هذه القصة تصور كفاح هذه الفئة الشابة الصالحة التى عاشت فى العهد المظلم السابق ، وكانت نفوسها تضطرم بالثورة على ذلك الفساد الذى كان يجتاح البلاد ، وقد أتاح الله لمصر قادة الثورة الذين عقدوا العزم على الموت فى سبيل الحق أو الانتصار على الباطل فأيدهم الله بنصره

والى جانب قصة « ثائرون » احتوى هذا الكتاب قصصا شائقة أخرى تمثل حياتنا الحاضرة فى صور مختلفة لما تجاوب فى نفس المؤلف من شئون الحياة العامة ، ولما أوحاه اليه وعى الأمة فكان من ذلك مجموعة قصصية ممتعة تضيف ثروة جديدة الى فن القصة الحديث